حارة الفيبرو

(عندما تصبح الأيام كلها ثلاثاء)

عنـوان الكتـاب: حـــــــــارة الفيبـــــــــرو
عندما تصبح الأيام كلها ثلاثاء

التـأليـــــف: دنيـــــــا ســـــــمحي

مراجعــة لغويــة: مجـــــــدي محـــــــروس

الإخـــراج الفنـــيّ: عمـــــرو وســـــالم ســـــواح

تصـميم الغـلاف: رشـــــــــا أحمـــــــــد

رقـــم الإيـــداع: ١٦٦٦٦ /٢٠١٩

التـرقيم الـدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٨٣٥-١٣٦-١

الناشر: زحمة كتاب بالتعاون مع اسكرايب للنشر والتوزيع

Facebook Page: اسكرايب للنشر والتوزيع

Email:scribe20199@gmail.com

Tel: 00201005079256

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار
اسكرايب للنشر والتوزيع

كل الحقوق محفوظة
لا يحق لأي جهة طبع أو نسخ أو بيع هذه المادة بأي شكل
من الأشكال ومن يفعل ذلك يعرض نفسه للمساءلة القانونية

حارة الفيبرو

(عندما تصبح الأيام كلها ثلاثاء)

دنيا سمحي

الإهداء

إلى الذين منحناهم بكرَ مشاعرنا وأصروا على أرملةِ قلوبنا، للذين مددنا لهم يدَ الخير، وما مُدت أيديُهم لنا سوى بكلِّ شر، للذين تَشبثوا بذلاتنا وضربوا بمحاسننا عرضَ الحائط... بالتأكيد له أهديكم هذا لكم ذكركم كان واجباً، جزاكم اللهُ مثلما قدمتم لنا وأكثر!

دنيا سمحي

الفيبرميالجيا: " الفيبرو "؛ مرضٌ نفسي صعبٌ اكتشافه في مراحِله الأولى، حيثُ يُعاني صاحبُه من آلامٍ نفسيةٍ جسيمة، إلا أَنَّه يظلُّ يُخفيها عن الأعين، ويتظاهرُ بالقوة، حتى تتمكنَ منه الانتكاساتُ؛ فيختفي عن الأنظارِ وينعزلُ حتى لا يرى أحدٌ ضعفَه، ويظلُّ يعاني في صمتٍ دونَ طلبِ للمساعدة.

مُقَدِّمَة

"حارة الفيبرو " هي مجموعةٌ من المشاهدِ الدراميةِ التي قد يكونُ أحدُ القرَّاءِ بطلها، ترتكزُ على قصصٍ تبدو واقعيةً أكثرَ من كونها كتابات أدبية، تتناول شخصياتٍ يُشار إليها أحيانـًا بأسماء شخوصٍ كناية عن واقع حالات كثيرةٍ ربما تعرَّضت لهذه التجربة أو عايشتها٠

في كلِّ مشهدٍ نستعرض معاناة تكدر الروح، يُفصح أحدُهم بما لا يقوى على البوح به لأحد، كانت فكرةُ هذا العمل، إيمانـًا بأنَّ (أ- ب) في هذه الحياة هو الألم، بداية أبجديتها المشقة والعناء، كما ذكرَ التنزيلُ العزيز " لقد خلقنا الإنسانَ في كبد"٠٠

جميعنا لدينا دمعةٌ نواريها حينـًا، ونفضح ما نكنه في أحيانٍ كثيرة، لدينا ما نغلق عليه نافذة قلوبنا خشيةَ البوحِ به، لدينا ما يجعلنا نتأملُ النجومَ ليلًا، نبتسمُ على مضض لا طوعـًا، نتجنبُ المرور بشخصٍ ما أو مكان بعينه، نتناسى ذكرياتٍ تؤرقنا، ونستحضر أحداثـًا تمنينا حدوثها.

لم يكن هدفي يومـًا نشر الإحباط والبؤس، أو إثارة وخزات قلبك، وجعلك تتحسس ندوبه القديمة، لكن وجب الاعترافُ بأن الحياةَ لا تستقيمُ لأحد، كلنا نعاني باختلاف مصدر الألم، هناك موقف في حياة كلٍّ منا شوَّه ماضيه، ولازال ينغص حاضره، ويُقيد أجنحة مستقبله٠

شئنا أم أبينا، إنها الحياةُ تظل تختبرنا، لا أدري إلى متى، لكن ما أؤمن به حقا، أن علينا التجاوز، علينا التخلي عما مضى واستكمال الدرب.

لا بأس بالاعتراف بمدى سوداوية الحياة وتفشِّى الظلم في العالم المحيط ، فلا يوجد شيء مطلقُ الجمال، لكل جميل ظله الذي إن بدا لك ستخشاه، للوردةِ أشواكها، فبقدر الكتلة المظلمة التي تطوفُ حولكَ، ربما ينفذ إليك شعاعٌ يحملُ بصيصـًا من الأمل لواقع مغاير، ليس واقعـًا مثاليـًا، لكنه يتسع لكَ، ولأبجديات حياتكَ الجديدة التي شارفتْ على البدء٠

ياللي بتسأل عن الحياة.... خُدها كدة زي ماهي "
فيها ابتسامة وفيها آآآآه... فيها آسية وحنية "

سعد عبد الوهاب

رائحةُ الليلِ الساكن لا أصواتَ ولا أضواء، لا شيء سوى صوتِ الليلِ المخيف حيناً، والمؤنس الوحيد طويلًا، وسكونُ الليل يفجِّر داخلها ضوضاء يكاد يُسمع صداها.

صامتةٌ هي؛ إلا أنها مشحونةٌ بالضجيجِ المزعج.

كانت ليلةً قمراء؛ إلا أن الضبابَ انتشر، فكأنَّما ارتدى الليلُ ثوباً شفَّافاً؛ الأضواءُ الخافتة ترتفعُ فتختلط بالنجوم وكأنَّما أنوارُ الأرضِ امتزجتْ بمصابيح السماء في مشهدٍ انطباعي طاغٍ.

تتمايلُ أزهارُ الياسمين فيفوح عبقُها ممزوجاً بنسماتِ هواءٍ عليلةٍ جعلت بعضَ ريحان شُرفة جارتنا الشقراء يتمايلُ ليلًا، وكأنما تتراقص أطراف الرياحين؛ فتنشر عبقًا له رائحةٌ مختلفة .

كأنها ليلةٌ رومانسية تضيئها الشموعُ يكتنفها دفءُ مشاعرِ عاشقين

إلا أن الشرفة خاليةٌ من العشاق عدا الزاوية التي آلتْ لها تلك الشقراء.

أيُّ عذابٍ يسكنُ روحَها !!

مسالمةٌ هي إلى حدٍ مرهق، جعلتُ أتأملها مليَّاً وأنا أسألُ نفسي..

تراها في خجلٍ عند القبضِ عليها متلبسةً بجريمة الحُبِّ الذي لم تعترفْ به؟

أم في ندمٍ على حبٍّ لا يسمنُ ولا يغني من جوع، ثم سَرعَانَ ما استسلمتُ عندما داهمني سؤالٌ استنكاري يُنغصني مفاده أنه : " لا يهمُّ ومَنْ منا لا يُعاني " .

الشرفاتُ المتراصة والمتلاصقة، الأنوارُ التي لازالتْ متوهجةً يساورك الظنُ بأنها تضمُّ بين جدرانها قصةً مؤرقة، قلوبٌ منهكة، وأفكارٌ طريدة، أو عساهم أناس غالبوا النُعاسَ فغلبهم، وينتهي التفسيرُ عند هذا الشكل المُبسَّط المنطقي!

هذا الشارعُ الذي هجرته لسنواتٍ، كانت طفولتي صاخبةً متوردةً في أحضان هذا الشارع ومساكنه والأحياء المجاورة، آنستُ أصحابها طويلًا، أتذكرُ أنني اختبأتُ عند جارتنا المُسنَّة "الخالة سعاد" حينما أخبرتني أمي بشأن انتقالنا للعيش في بيتنا الجديد في كندا؛ حيثُ يعملُ أبي، لم يكن يهمني حينها أين سأنتقلُ ولم آبه لكندا من مصر.

كل ما كنتُ أفكر به؛ أنني لم أشأ تركَ أطفالِ الحارة، الحي، جيران الشارع، يوم الجمعة وجلسات الشيخ " إبراهيم" في عصر كل جمعة، كنت صغيراً حينها لم أتعمقْ في فحوى الجلسات، لكنني كنت أهوى تلك التجمعاتِ والاستماعَ الشغوف، وإن كنت لا أفقه شيئاً إلا أنني عشقتُ الإنصاتَ ورؤية وجوهٍ سعيدةٍ مستبشرة.

لم يكنْ يهمني حينها وأنا الطفل ذا الرابعةِ من عمري، سوى أن أتسلل خفيةً، وأظلّ أهربُ من جارٍ إلى آخرَ حتى لا تجدني أمي، وتتراجع عن فكرةِ ارتحالنا.

كانت كلما اكتشفت أمي مخبأي سرعان ما أتسلل لأختبئ عند آخر، حتى تسللت عند الخالة سعاد، وحينما كانت منهمكةً في إعدادِ كعكاتها، وجدتُ وكراً لا يحلمُ به أيُّ متسلل لاجئ، وخاصةً إنْ كنتَ في الرابعةِ من عمرك، وجسدُك هزيلٌ لا يشغلُ حيزاً من المكان ولا الزمان، أفرغتُ بعضَ

محتوياتِ الثلاجة التي انقطع عنها التيارُ الكهربي منذُ الصباح، ووجدتُ برطمان المخلل هو أنيسي الوحيدُ في هذا المخبأ.

كدتُ أصيبُ الخالة سعاد بنوبةٍ قلبية عقبَ صُراخها المدوّي وكأنما باغتها شبحٌ طريدٌ، أشتاق لها كثيراً ، لم أسمع عن الخالة منذُ سنوات.

في غربتي لكم اشتقتُ لشارعنا، وجيراننا، ووجوههم الباسمة التي تستقبلك وتودعك بنفسِ الابتسامةِ الحانية، الآنَ أعودُ، أغترفُ من ذاكرةِ الطفولةِ كلَّ ما يمكنني استرجاعه، فيزيد اشتياقي، ويزيد شغفي برؤية الجميعِ من جديد.

الآنَ أعودُ، لكن ماذا حدث ؟!

رائحةُ الثرى، المخبزُ وبائعُ الزهور، النافورةُ التي اعتاد الأطفالُ التجمُّعَ حولها في الظهيرة، الشوارعُ والأبنيةُ التي توارتْ صدوعُها بكتاباتِ ورسومِ الأطفالِ وألوانهم، فشكَّلتْ لوحةً فنيةً تبدو عميقةً رغمَ بساطتها.

كلُّ شيءٍ يبدو كما تركته منذُ سنواتٍ، لم يتبدل الحيُّ لكن تبدلت معالمُ وملامحُ ساكنيه، خيَّمَ الليلُ باكراً على المدينة، أشباحُ الهموم تحومُ حولَ شُرفاتهم، تتلمسُ أنيناً صامتاً في وجوههم الشاردة.

صغيرٌ، أم كبيرٌ، لا فرقَ، يبدو أن الجميعَ يعاني، الكلُّ لديه قصة ورواية ودمعة متوارية لا تجدُ سبيلها للتسلل سوى خلسةٍ، حينما يُطبق على الكون سكونُ الليل.

لكن متى أصبح الجميعُ يعاني، ولمَ ؟ كانوا بخيرٍ جميعاً حينما رحلتُ.

ماذا حلَّ بالجيران؟ أم عساهم لم يكونوا أحسنَ حالًا، بيد أن طفلَ الماضي لم يملكْ من الإدراكِ ما يتسعُ لفهم ما تُكنُّه كلُّ تلك الصدور من

أنينٍ صامتٍ، وكلمات موبوءة بشجنٍ لا منتهٍ، متخفيةٌ خلف ستار ابتسامةٍ صفراءَ لا روحَ لها ولا طعم، كأنَّما قُتلت حمامةُ سلامهم، وما عاد يُسمع سوى نعيبُ البوم !

بعدَ عودتي من كندا، بعدَ سنواتِ اغترابٍ طويلة، في الحقيقة لم أكنْ أعلمُ ما إن كنتُ أنوي البقاءَ هنا أم أنني سأرتحلُ من جديد، فضَّلتُ أن أتركَ هذا القرارَ لأجلٍ غيرَ مسمى، وحتى الآنَ لم أعلمْ السببَ الذي جعلني أُقبلُ على هذا التصرفِ لكنني راضٍ عنه تمامٍ.

خلال دراستي بجامعة " ميموريال"، إحدى جامعات ولاية " نيوفاوندلاند" المرموقة في كندا- التي يدرسُ بها كثيرٌ من الطلاب العرب- كنتُ قد عقدتُ النية على استكمال درجة الماجستير في الطب النفسي، لم تخالجني فكرةٌ لامعةٌ غير كلّ الأفكار التقليدية لأناقشها في رسالتي، وتزامن ذلك مع عودتي إلى مصرَ من جديدٍ، فازداد أملي بأن يُلهمني رجوعي إلى هنا بأية فكرةٍ لائقة تصلحُ لأن تكون موضوعَ بحثي.

* * *

مضي قرابةُ ثلاثةِ أسابيعَ وأنا هنا، بالكاد تذكَّرني بعضُ الجيران، لاحظتُ تغيُّرَ ملامح كثيرين، وهذا شيءٌ طبيعي نظراً للسنين الكثيرة العابرة، لكن لم يكن مظهرهم الخارجي هو ما لفت انتباهي، شيءٌ ما كان يجذبني بأنْ أتفحصَ وجوهَهم وتعبيرات الجميع، لم أكن أعلم ما جدوى تأملهم بيد أن الأمرَ شغلني كثيراً، إنَّه لشيءٌ مربكٌ حقاً .

في إحدى الليالي الهادئةِ التي كثيراً ما يشهدها هذا الحيُّ، وبينما تجالسني وحدتي، متأملا في السماءِ وذاك الفضاء الواسع حيناً، وفي الطرقاتِ والهدوءِ المُسيطر كثيراً، جذبتني بعضُ الأضواءِ الخافتة المنبعثة من بعض الشقق، والنوافذ الموارِبة .

موسيقى؟!

موسيقى في هذا الوقت؟!

نعم ... حيثُ كنتُ أعيشُ لا بأس بالموسيقى من الشروق للغروب، لكن كيف في هذه الساعة هنا ؟!

تُرى ما مصدرُها، وما يؤرق صاحبها حتى هذي الساعة من الليل؟!

ولِمَ أيضاً الأضواءُ الخافتة، والناسُ نيام، الأمرُ يحتاجُ الكثيرَ من الأسئلة، ويتطلبُ الإجاباتِ المُرضية؟

الآنَ فقط أعلمُ ماذا سيكون موضوع بحثي!

الوصول لفكرةٍ صعبةِ التنفيذ يبدو عملًا انتحاريًا، مخاطرة محسومة النتائج، خاصة إن كان موضوع البحثِ أناساً متحفظين، مجردُ لفظ طبيبٍ نفسي يرعبهم، وزيارته بمثابة جُرمٍ مُخزٍ وعارٍ كبير أو دليلٍ قاطعٍ على الجنون .

كيف لي أن أجعلهم يبوحون بما لديهم بعد أن ساورتني في تلك الليلة بعضُ التساؤلات جعلتني أختار فكرةَ بحثي، النوافذُ التي لا زالتْ مواربةً، والأضواءُ التي لم تنطفئ بعد رغمَ أن الوقتَ قاربَ الفجرَ، الموسيقى الهادئة المليئة بنغماتِ الشَّجنِ لا زالت، العيونُ الساهرة لديها ما يؤرقها.

كلي يقين أنني سأجدُ خلف كلِّ نافذةٍ مواربةٍ سراً، وخلف كلِّ نغمةٍ حزينةٍ قصةً ورواية لا تقلُّ شجناً عن تلك الأنغام، أعلم أن الأمرَ سيكلفني الكثير، لكنه سيُرضي طموحي بالتأكيد، وهو المطلوب!

❊ ❊ ❊

تراكمت الأيامُ، وتوالت الشهورُ، ولازالت أعملُ على بحثي الذي أوشكت إنجازه- وإن شئت قل- بدأت ملامحه تتضح ويظهر للنور، بعد محاولاتٍ عدة، وسبل إقناع لا حصرَ لها، استطعتُ- طبعا بكامل إرادة المبحوثين- أن أحصلَ على قصصٍ وأحداثٍ أحسبُها غايةَ التعقيدِ رغمَ بساطةِ تفاصيلها.

❊ ❊ ❊

المشهد الأول

" صباح ومسا..... شي ما بينتسى
تركت الحب وأخدت الآسى... "

فيروز

- السلامُ عليكم يا أهلَ الدارِ الكِرام!

- أخيراً قد تكرَّم مهندس العائلة بزيارتنا في منزلنا المتواضعِ .

قالها والدُ عمار (الحاج صلاح الهواري) تاجرُ المفروشاتِ ذائعُ الصيتِ بمسقطِ رأسِه بالشرقية.

وكان عمار يتوسطُ إخوته في العمر، يسبقه " أدهم" خريج كليةِ التجارة بعامين، وتصغره " سارة " طالبة كليةِ الألسنِ بثلاثةِ أعوامٍ تقريبًا.

رحَّب الجميعُ بعمار، وأقبل أبناءُ العمومة والأقربون؛ لترتيب الاستعداداتِ لحفلِ خطبةِ سارة؛ بحيثُ يليقُ بعائلةِ الهواري!

اجتمعت العائلةُ، وشرع الجميعُ في تجهيزات الحفل، فمنهم مَنْ يقومُ بدعوةِ الأحبَّةِ والأقارب لحضور المناسبةِ السعيدة، والبعضُ يُشرفُ على تجهيزات الاستقبال من مأكلٍ ومحل الاستقبال، وامتلأت منازلُ "الهواري "بالزغاريد والطبل، وما لذَّ وطابَ من أجواءٍ احتفالية لم يشهدها الحيُّ منذُ الاحتفالِ بعيد الفطر الماضي.

- زياد! زياد! حَذارِ الكهرباء (صوتٌ رقيقٌ بنبرةٍ قلقة)

- مما الحذرُ ؟! إنَّها مهنتي يا حمقاء، اذهبي إنْ كنتِ تهابين الكهرباء.

- كَبُرَ الفتى، وترك اللعبَ بحبالِ المطاط ليلعبَ بأسلاكِ الكهرباء(قالها عمار وهو ينظرُ نظراتٍ عابرةٍ للشرفة المقابلة التي لم يكن بها سوى زياد، وهو يعبثُ ببعض الأسلاكِ الكهربية).

- عمار هنا ! الآن عرفتُ لِمَ تعطلت الأنوار.

- انطفأت المصابيحُ؛ لأنك تعبثُ بها ليلَ نهارَ يا أبله، لا لقدومي

انتظر قليلا سآتي لك في الحال.

مرَّت الساعات، وحان ميعادُ انطلاقِ الاحتفالية بقدومِ أهلِ الزوجِ

المستقبلي لحفيدة الهواري" سارة"، وانطلقتْ على إثرها الزغاريدُ، وساد الضجيجُ حتى لا يكاد المرءُ يسمع صدى صوتِ تفكيره المنحصر بعقله من كثرةِ الضجةِ والبهجةِ العارمةِ التي أغدقها الاحتفالُ على الحاضرين؛ كان الجميعُ في غايةِ الأنسِ والانسجامِ عدا عمار الذي لاحتْ عيناه بأزقَّةِ المنزل ونواحيه، بل واخترق ببصيرة فؤادِه الحاضرين، تراه فتحسبه على وشكِ أنْ يُفنِّدَ الحضورَ فرداً فرداً كي تلتقي عيناه بضالته.

لم يبرحْ عمار مجلسه غيرَ أن عينيه طاردت ظلَّ إحداهن هنا وهناك، يخترقُ مجالها الخاص، يحطمُ دفاعاتها شيئاً فشيئا، يشيحُ نظره عنها لوهلةٍ ثم ما يلبثُ أن يطاردها من جديد، نظراته وإن كانت متأملةً بيد أنَّها لم تكن شهوانيةً ولا حتى عابثة، لم تكن سوى نظراتِ عاشقٍ يحاربه عشقُه باستماتةٍ وصبر.

وهي التي تقاومه، وتقاوم نفسها في كلِّ لحظةٍ تقع عليه عيناها خلسةً، كأنَّها تقول:

" توقفْ يا أنت، ستجعلني أسقطُ، وحقيقة لن يسقط شيءٌ بقدر ما سيسقط قلبي، لكن يمكن أن أجعله يسقط بكلِّ أريحية طالما سيسقط بين كفيكَ أنتَ"

أفاق عمار سريعاً من بحر تأملاته الواسعة التي لن تنتهي، وابتسم ابتسامةً خفيفةً ولسانُ قلبه يُردِّدُ : ماذا فعلتِ بعمار يا ريم!

عمَّ الصمتُ، وساد سكونُ الليل بعد أن آوى كلٌّ إلى مآله ومنزله، فقد كانت ليلةً طويلةً وشاقة لكنها أسعدت قلوبًا كثيرة، بما فيها قلبٌ هائمٌ بحبِّ عُذري ، تكفيه نظرةٌ أو بعضها ممَنْ يحبُّ، تحييه نابضًا متأملًا على أقلِ تقديرٍ في عالمه الموازي.

الجميع نيام، عدا قلبين؛ إما قلبٌ أثقله الحبُّ هياماً وزاد فرطه، وإما قلبٌ ثمل الأسى، واعتصره الفِراقُ فلم يعي لليلٍ سكوناً، إنما آلامٌ ترقد في الذاكرةِ تجدُ مخرجَها في الليل حيثُ ينصتُ العالم للصدور التي تفيضُ بما لا تقوى على حمله، ولا تجرؤ على تركه.

كانت ليلة طويلةً، وأحداثُها لم تتوقف للبعض، انقطع التيارُ الكهربي في الحي، وأضيئت بعضُ البيوت بالقناديل، وبعضها أضاءته الشموعُ، بينما استسلم آخرون لسكون الليلِ، وآثروا هدوءه والاستلقاء وحسب، حتى إشعار آخرَ.

خرج صديقنا عمار للشُرفة؛ علَّه ينفس قليلًا عمَّا يغمره من أفكارٍ متداخلة، ويستمتع بهواءٍ مُحمَّل بما يلاطف فؤادَه الملهوف، لم يدرِ أن مشاعرَه وأفكارَه الشاردة سترتبك أكثرَ فأكثر، فما إن خرج إلى شُرفة الطابقِ العلوي حتى جذبته إحدى الشموع الموجهة على وجه إحداهن في الشرفةِ المقابلة، وقد انعكستْ على ملامحها الرقيقة فتبينها عمار لبرهةٍ ثم ما لبثَ أن خفق قلبُه كأنَّما أصابت فؤادَه أشعتُها المنعكسة بانسيابية.

أخذَ يتأملها خلسةً بشيءٍ من الاستحياء، لكن سرعانَ ما تملكته الجرأةُ والإقدام، وحرَّك شفتيه، لم يكن يضع في حسبانه أنه يمتلكُ هذا القدرَ من الاندفاع لمحادثتها وفي هذا التوقيت خصيصاً، لكنه فعلها، أطلقَ لجام لسانه بعد أن كبَّله كثيراً، لا تتعجب الأمرَ، فالقلب قد قرع الطبول بأنَّها ساعة الذروة، آن الأوانُ لينطلقَ فيكتشف المجهول لعله يجد ما يجذبه لبرِّ الأمان بدلا من ذاك التشتت الذي يمزقه إلى أن يطرحه أرضا صريعَ الهوى، قتيلَ الشوقِ والغرام.

- ألا تخشين الظلام؟!

- ها ؟! عمار.. لا.. لا أخشى الظلام .

انتبه عمار لتلعثم ريم، وشرع في حواره :

- دعينا من الظلام والأنوار، كيف حالُ دراستكِ إذاً يا محامية المستقبل؟

- محامية ماذا، لا أحبُّ هذه الكلية إطلاقاً، لا تناسب شغفي وهواياتي إطلاقاً، لكن لا بديلَ لي سواها، لذا لا بأسَ بها حتى الآنَ.

- لا بأسَ يا ريم جميعنا هكذا، عموماً الكلية ليست محورَ الكون، هي فقط إحدى محطاتِ الحياة حتى تجيدي ما تمتهنيه مستقبلًا.

- امممم لعلك على صواب .

- لن أتطفلَ عليكِ بأسئلتي، لكن لِمَ لازلتِ مستيقظةً لهذا الوقت يا صغيرة ؟

ريم صارخة: هاااا، صغيرة ! مرة أخرى يا عمار!

ما كادت ريم أن تتحدثَ حتى أضاء الحي من جديد، يبدو أن الكهرباءَ قد عادت، وأخيراً لمح عمار بسمتها المرتسمة على شفاهها، تلك الابتسامة حفرت الكثير بقلبِ عمار، وأسرته حيناً طويلا.

ارتبكتْ ريم قليلًا، فأشاحَ عمار بصرَه عنها؛ فهو لا يودُّ أن يتأملها، فيرتكبُ ذنباً باسم الحب .

-حسناً أظن الوقت تأخَّر كثيراً، وحان وقتُ النوم .

- حسناً، طابتْ ليلتك .

عمار وقد قطب حاجبيه مازحاً:

- هيا عودي للداخل، لن تتأملي النجومَ للصباح، أليس كذلك؟

- لا لا أريد النوم الـ...

- بلى ستفعلين، وإلا صرختُ واستدعيتُ زياد الآن، هو سيتولى أمرَ النجومَ وعدها، أليس كذلك ؟

- حسناً حسناً، لا داعي لأن تفعلَ ذلك، سأعودُ للداخل الآنَ .

- بالمناسبة! إطلالتكِ

- هاااا ؟

- إطلالتك كانت مميزةً للغاية الليلة .

- شكراً لكَ؛ وبالمناسبة أيضاً، لقب صغيرة ليس بهذه البشاعة، يمكنكَ أن تناديني به من حينٍ لآخرَ.

- حسناً اتفقنا، طابتْ ليلتك يا..... صغيرة

انتهى الأسبوعُ الدراسي، وشرع عمار في تهيئة الأجواءِ في المنزل؛ لاستقبال قراره السعيد، لكنه آثر أن يرى لمعة الاستحياء والقبول في عيني الفتاة، وكأنَّه أفاق سريعاً من نوبة تفكيره على صوتٍ عذبٍ لطالما اشتاقَ إليه

- " حمداً لله على السلامة يا بشمهندس"

صوتٌ قد خطف قلبه قبل أن يسرق عينيه، التفت سريعاً

- " أهلا بالصغيرة، كيف الحال!"

ابتسمتْ قليلًا ، ثم سرعانَ ما قرر عمار اقتناصَ الفرصةِ التي لن تظلَّ سانحةً طويلًا وقال، " اسمعي يا صغيرة أريدكِ في بضعِ كلماتٍ، فهلا لحقتي بي إلى الشارع، وأحضري معك " مايا" طفلة أخيكِ؟

- ها؟ لماذا؟

- لا تكثري الحديثَ، فقط افعلي كما أخبرتكِ، ستعرفين لاحقاً .

- امممم .. حسناً .

- ها أنتِ ذا! كيف حالكِ إذن!

-كيف حالي؟ أتيت بي إلى عرضِ الشارعِ لتسألني عن حالي يا عمار؟ لكنت أجبتك أنني بخير لو أنكَ سألتني، وأنا في شرفتنا!

- لستِ صغيرةً وحسب إنما تمتلكين مهارة الثرثرةِ أيضاً . "قالها وقد باغتته ضحكاته"

- اسمعي، أريدُ أن أتلقَّى نصيحتكِ في أمرٍ ما يخصني، وإياكِ مقاطعتي حتى أكملَ حديثي، أريد أن أخطبَ، فهلا رشحتِ لي إحداهن؟

تغيَّرتْ نظراتُ ريم، وبات وجهها شاحباً، ماذا؟ خطبة ؟ فتاة أخرى؟ أقصد فتاة !

- نعم، ما الخطب؟

- لا...لاشيء، لكنني لا أعلمُ أية فتاةٍ مناسبة .

- امممم حسناً لا بأس، أظنني أعلم فتاةً مناسبة جداً، سأتقدم لخطبتها هذا الأسبوع بإذن الله .

- فتاة ؟ أية فتاةٍ ؟ هل هي زميلتكَ في الدراسة ؟ أم أنها إحدى جاراتنا؟

- أها إنَّها فتاة جميلة رقيقة، وهي تعجبني كثيرا

قطبت ريم حاجبيها، وقالت في ضيقٍ:

- حسناً على الأقل سنحضرُ خطبتكَ قريباً، مبارك عليكَ .

- لِمَ تقولين المباركة بضيقٍ هكذا ؟

- ضيق ؟ وأي ضيقٍ هذا؟! ولِمَ أتضايق! افعلْ ما شئتَ، مبارك ثانيةً .

تعالت ضحكات عمار، وحاول كتم صوته قليلًا :

- صغيرة، ثرثارة وحمقاء أيضًا، أنتِ الفتاة؛ أنا أحبُّكِ يا ريم .

وكأنَّ الصاعقةَ هبطتْ على قلب ريم، لا تدري أتصفعه على وجهه لجرأته، أم تصفعُ نفسها لتفيقَ من كلِّ ما يحدث، وهي ما حسبته حلمًا لوهلتها الأولى.

لكن نظراً للأجواء المحيطة بالشارع ، ومايا التي ظلت تردِّدُ الكلمة بشكلٍ غيرَ مفهوم، أفاقت ريم، وتمالكتْ أعصابها قليلًا :

- ماذا ؟ أنا ؟ لماذا أنا ؟ و...

- كفاكِ، أريدُ أنْ أعرفَ حقيقةَ شعورِكِ نحوي ؟ أأنتِ معجبة بي ؟

-هاا؟ أنا ؟ كفاكَ يا عمار!

تغيَّرتْ ألوانُها تباعاً، وسرحت عيناها في كلِّ شيء عدا عمار، كانت خائفةً أن تلتقي عيناهما .

- ريم .. أريد فقط إشارة منكِ أنكِ ستكونين لي، أنك تريدين الأمر، حينها أعدُكِ أنني لن أخذلَكِ .

رفعت عينيها على استحياء، وقالت" إن كنتَ جاداً مثلما تقول، حسنا...

استأذنتْ بعدَها، واختفتْ من أمام ناظريه، والارتباكُ يشملُ كلَّ ذرةٍ في كيانها .

شعر عمار حينها بأنَّ العالم بأسره جاءه فرحاً، وأنَّ أيامه قد وجدت أخيراً طعماً ولوناً..

قبل أن يغادرَ عمار لجامعته، قرر أن يخاطبَ والديه وأخوته بشأن ريم

كانت أسرةُ الهواري مجتمعةً حينها أمامَ التلفاز، تردَّدَ عمار قليلا فقد كان مرتبكاً، إلا أنَّه آثر أن يتكلمَ :

- أبي أريدُ أن أتقدَّمَ لخطبة إحداهن!

صفَّقَ أخوةُ عمار صائحين مهللين، وبادرته سارة بصوتٍ مرح " هكذا أصبح لدينا عريسان ببيت صلاح الهواري، مبارك لنا .

- عريسان؟ من سيتزوج؟

- أدهم و..

قاطعها " أدهم ":

- تحدثتُ صباحَ اليومِ معَ أهلِ الفتاةِ، وهناك قبولٌ شديد .

هلَّلَ عمار وعانق أخاه؛ "هذه هي الأخبارُ الرائعةُ وإما فلا، مُبارك أخي، لكن لا بدَّ أن أراها أولا؛ حتى أحكمَ بنفسي إن كنتُ سأوافقُ على هذه الزيجة أم لا ." قالها عمار مازحاً .

- ريم جارتنا يا عمار، أخذتُ موافقةَ أهلِها هذا الصباح، وأظنُّها لن تعترضَ هي أيضاً .

وقع اسمُ ريم على مسمع عمار كأنَّما أوقعت جمرةً ملتهبةً متأججةً على صدره، وتركتها لتحفرَ به قدرَ ما شاءتْ، تأكله شيئاً فشيئا، فلا تُبقي من إحساسه وروحه شيئاً .

❊ ❊ ❊

كيف، متى، ولماذا؟! كل هذى الأسئلةِ الوجودية وأكثر، تلاحقت الأحداثُ، تتابعتْ وتوالتْ الصدماتُ، القصةُ مكررة، وتبعاتُها مُدركة، نارٌ تحرقُ فؤادك، وألفُ سؤالٍ وآخرَ يجولُ بخاطرك، لا بأسَ المعادلةُ أصبحت موزونةً..

عمار كان زائري الأول في عيادتي، كان أولَ مَنْ أرى حزنه ينهشُ به، ووجد أن الوقت لم يضمدْ جُرحَه الدامي، فتوجَّه لزيارتي علَّه يجدُ عندي

الدواء، في الحقيقةِ لم أداويه، هو يحتاجُ فقط للتجاوز، ربما لن يقوده التجاوزُ إلى النسيان، لكنه بالتأكيد سيخففُ من سكراتِ ألمِ قلبه.

عمار ليس شاباً واحداً، عمار كناية عن شبابٍ كُثر، عن تجاربَ شارفتْ على الالتقاء بالنور فأظلمتْ، عن حبٍّ مستحيلٍ واشتياقٍ باتَ مُحرَّماً لا يحلُّ له، سيلتقي بمَنْ أحبَّ، سيحويهما بيتٌ واحدٌ، إلا أنَّها ستكون في أحضانِ آخرَ.

لم يعترضْ، ولم يقوَ على البوح بما يساوره من ظنونٍ تُهلكه، قرر أنَّها لا تحبُّه، وأن القصة برمتها لم تكنْ، ستغدو الحياةُ في سبيلها، سيلقيه قدرُه في طريقٍ أخرَ، ستتمزق روحُه مابين ماضٍ معتمٍ وتجربةٍ لم تكن، وبين قصةٍ وروايةٍ تولدُ من رحم يأسٍ وجرحٍ لم يلتئمْ بعد.

لكن ماذا يحدث، ستجذبك الحياةُ مرةً أخرى، وستنجذبُ حتماً!

ستحبُّ من جديد، وأنتَ الذي أقسمتَ ألا تفعلها، هذا كلُّه لا بأسَ به، لكن ماذا يحدثُ حينما تواجه نفسكَ بينَ شعورِ الماضي وإحساس الحاضر، السؤالُ الأزلي هل حقاً أغلقت باب الماضي؟ أم أنَّكَ تاركه مواربا،أظنه سؤالا لا يجيد كُثر الصدقَ بشأنه، لكن حتماً ستمضي بطريقٍ أو أخرَ.

لن أخدعك كثيراً، لكن إن لم تتخلصْ من الماضي سيصبح السرّ الذي يهوي بكَ إلى الدركِ الأسفلِ؛ فادفنه وامضِ!

* * *

المشهد الثاني

" ودع هواك وانساه وانساني، عُمر اللي فات ما هيرجع تاني٠٠
كان حلم وراح، انساه وارتاح
ودع هواك٠٠٠ ودع "

محمد عبد المطلب

كنتُ أعلم أن للجميع قصةً يواريها في صندوقه الأسود، شيئاً لا يبوحُ به، وتفصيلة غارقة وسطَ بحورِ الآمالِ المحطمة، ربما هي جمرةٌ تظل تدفنها داخلك لتحرقكَ ببطءٍ مؤلم.

كالعادة يصادفني البعضُ ممن لا يقوون على البوحِ بمكنونات صدورهم، وهم مَنْ اتخذتُ معهم منهجاً مغايراً حتى يفصحوا عمَّا يشعرون به، جعلتهم يتخيلون أنَّهم قد عادوا لحيثما توقفتْ حياتهم، عادوا لحيثما تلقوا الخذلان، جعلتهم يستعيدون ذكرى المعاناة، يوجهون رسائلَ لم يقووا على الصمود والبوح بها من قبلُ، فكأنني اتخذتُ شعاراً مفاده " تستحق أن ينصتَ العالمُ لألمكَ "

عندها قالت:

-أتعلمُ أمراً،رحيلُكَ لم يعدْ يؤثّر بي، رؤيتُكَ صدفةً لم تعدْ تجعل قلبي يخفق، الأمرُ لم يهزني أبداً،اختفت وخزةُ الألمِ التي لطالما لاحقتني وأنا أتأملُ صورك، بالمناسبة محوتُ كلَّ ما يمكنه أن يذكرني بكَ، كل الأماكن التي رافقتني بها، استبدلتُ ذكرياتها بأخرى تستحق، لن أتشبثَ بكفٍّ من شيمها الإفلات، ذكراك أصبحت تمرُّ على قلبي كذكرى نكسةِ حرب.

أصبح حبُّكَ لا يليقُ بقلبي، ولم يعد ينتابني الأسفُ حيالَ ذلك، يكفيك عقاباً أنني لن أراكَ كما كنتُ أراك، ويكفيني انتصاراً أنني أعدتُكَ غريباً كما كنتَ!

المشهد الثالث

"الرجلُ يعشقُ الصدارةَ والسيطرة؛ في العملِ، في المنزلِ، وبالطبع في العلاقاتِ العاطفية، ربما يقودكِ أنتِ للهلاك – لا يهمُّ المصير– فقط يكفيه نصراً أنكِ لم تلقي حتفَكِ على يدِ أحدٍ قبلَه ! "

دنيا سمحي

لم تكن جنى أصعبَ قصةٍ حدثتْ على الإطلاق، لكنها كانتْ غامضة كثيراً؛ فهي لم تكنْ من النوع العاطفي المُقبل على العلاقاتِ الجادة، لكنَّها لم تكنْ تملكُ من الرزانة ما يؤهلها لتجنُّبِ الصدمات.

فتاةٌ تخطتْ حاجز السن الرسمي للزواج حسبَ التقاليدِ المصرية العتيقة، ولعلها كانتْ الأكثرَ تردداً على عيادتي المتواضعة، رغمَ خجلها الذي كثيراً ما منعها من الحديثِ خشيةَ أن أوصمها بالخلل النفسي كما فعل كُثر، وربما كما خُيِّل لها!

قالت:

- وأنا تمنيتُ كثيراً، لكن شيئاً لم يحدث، تمنيتُ أن أحظى بقصة حبٍّ كالتي في الأفلام والدراما، أحفظُ سيناريوهاتها عن ظهرِ قلب، تمنيتُ أن تتحققَ إحدى تلك الرواياتِ الوردية في واقعي، أو أقلّه أن أحظى بقصةٍ وتفاصيلَ مميزةٍ، في الحقيقة تحقق بعضُ الأمر، حظيتُ بقصصي، وإن لم أدرِ حتى الآنَ ما كانت ماهيتها!

لكنهم بالأحرى لم يكونوا حباً، ربما قلوب خاوية، وعقول ثملةٌ صادفت مشاعرَ متهورةً وطيش في الإحساس، قراراتٌ غيرُ صائبة، أودتْ بأصحابها إلى ما لا يُحمدُ عُقباه.

"علي" زميلُ الدراسة الذي لطالما اخترقَ ببصره حواجزَ قلبي، كانت تتملكني الريبةُ إثر تطفُّله البصري، لكنني آنستها كثيراً، كنتُ أنتظر مبادرته دائماً، لكنه لم يفعلْ، كان مجردَ مراهقٍ يعبثُ بنظراتٍ جامحة وحسب، لا أدري لَمَ انجذبتُ له، علَّه الوحيد الذي أبدى اهتماماً بي حينها!

التقيتُ بنسخةٍ مُحدثة من "علي"، لم يكن زميلَ الدراسة ذاته، لكنه أحدُهم بنفس الروحِ الانسحابية، صديقُ العمل هذه المرة، لم يكنْ يؤمنُ بالمنافسة الشريفة، طرق "سليم" أبوابَ قلبي، أخبرني أنني لستُ كمثيلاتي، حتى أنني كدتُ أقتنع بالأوصافِ الرائعة التي وسمني بها.

أتعلمُ شيئاً أحببته حقاً ؟ كنتُ أراني جميلةً للغاية في حضوره، ولأجل أن أستزيدَ من هذا الشعور، وأن أحظى على انتباه "سليم"، تعمَّدتُ تغييرَ مظهري، وهو الأمرُ الذي لاقي اهتماماً بالغاً وثناءً مغري منه.

اعترفَ أخيراً بحبِّه لي، لكن كطبيعة الظروف، فإنّه يتحتَّمُ علينا الانتظارُ حتى حين؛ لتسنحَ الفرصةُ للزواجِ " لكن طالما أنا أحبُّكِ وأنتِ تثقين بي، لمَ لا نفعلها؟! ""

هذه كانت كلماته حينها، للوهلة الأولى عنَّفته على ما قاله، هل ظنَّ أنَّ بحبي الخفي له تحولتُ لفتاةِ ليلٍ، أحبُّه لكن يمكنني الانتظارُ.

لم يكلفه خداعي سوى بضعةِ أيامٍ، ونبرة صوتٍ يغشاها الحزنُ، وكلمات غزلٍ رنَّانة، واستعطاف لا نهايةَ له من بداية، وجدتني في نهايةِ اليومِ أمامَ رجلين لا أتذكرُ حتى ملامحهما، ورجل يرتدي عمامةً يودعنا بابتسامةٍ خبيثةٍ، وبعض العبارات التي تحاشيتُ سماعها طوعاً، يبدو من هيئته أنَّه مأزون، وسليم ينظرُ إليَّ وهو يغلق باباً لا أعلم كيف دلفتُ إليه.

يا الله لقد وافقتُ على الزواجِ من سليم بدون معرفة أحد!

قلبي يكاد يتوقفُ خشية ما قد ينويه " سليم"، في الحقيقة ليته نوى فقط ما دار بخاطري.

سليم توقَّفْ، لا تقتربْ أكثر

أوقفْ كلَّ هذا العبث

سلييييييييم

وإذ بأحدهم يُحرِّكُ مفتاحاً في ثُقبِ الباب، لأتنفسَ الصعداءَ قليلا ظناً مني أنَّه الخلاص من هذا الموقفِ المريبِ، ثم سَرعَانَ ما قفزت دقاتُ قلبي من جديد، لألفظ اسمه " مستر حسين"!!

المدير التنفيذي للشركة التي نعملُ بها، لثوانٍ معدودةٍ دارتْ الأسئلةُ بذهني، ليوقفها سليم قائلا:

" أخيراً وصلتَ يا مستر، دا أنا كنت هتهور والله "

- ماذا ؟؟ سليم ؟ ماذا يحدث ؟

- لا شيء يا عروسي الجميل، حقيقةُ الأمرِ كنتُ معجباً بكِ في البداية، وكنتُ سأحظى بكِ لنفسي، لكن المستر كشف أمري سريعاً وعقد صفقةً معي، لم أجدْ لكِ طريقاً سوى بالحب، وبعض الكلمات، ولا أسهل، وها أنت الآنَ زوجتي، وإن أنكرتي ذلك تسوءُ سمعتُكِ الغالية بين أبناء حيَّكِ، لذا بما أنَّكِ خاصتي الآنَ، سأفي بعهدي معه، استمتعي عزيزتي!

- سلييييييييم، لا ترحلْ، وتتركني هنا..

سليم أحبُّكَ لا تفعلْ بي هذا، سلييييم!!

صوتُ البابِ الذي يطبق يعلنُ رحيل سليم، وتركي مع هذا العتيق!

- إياكَ أن تتحركَ خُطوةً واحدةً .

خطوات متثاقلة بطيئة تقترب....

- إياااااااك أخرجني من هنا الآنَ، سيقتلُكَ إخوتي إنْ علموا بأمرِكَ!

ضحكاته تعلو، وخطواتُه تجاهي مستمرةٌ، وأنا أبتعد قدرَ المُستطاع، لم أفكر كثيراً، فقط هربتُ نحوَ المطبخ، وهرول هو ناحيتي، بالطبع هناك سكيناً، لكن لن أجازفَ وأطعنه؛ لأنَّه باختصارٍ أقوى مني، وسيفلتُ من ضربتي، حسناً إذن إنَّها نهايتي في كلِّ الأحوال.

صوتُ صراخي دوَّى، فضلا عن دمي الذي سال؛ فقد وجد السكينُ مسكنَه أسفلَ صدري في غير مقتل، وهو ما جعل حسين يرتعدُ ويهربُ خوفاً من التورُّطِ بي!

صرخةٌ واحدةٌ أتذكرها، وبعدها هأنذا أمامكَ، لا أعلم ما ذنبي أنّي أحببتُهم بقلبي، وهم أحبوني بغرائزهم، رأيتُ بهم الأمان، "علي" الذي مثل حبِّي العُذري، وسليم الذي رأيت به فارسَ أحلامي، الذي سيحقق النبوءةَ المنشودة، لا "علي" ونظراته المراهقة كان حباً، ولا سليم شبيه الرجل كان!

* * *

"جنى" في بيوتٍ كثيرة، حكايةٌ لا تُحكى، قصةٌ تتوارى خلفَ دمعاتٍ تتسللُ خلسةً ليلًا وتختفي في وضحِ النهار؛ خوفاً من الأعين التي تنبشُ خلفَ الأسرار المكنونة.

"جنى" هي فتاةُ المترو والمواصلات التي تتبعها الأنظارُ أينما ذهبتْ، هي الفتاةُ التي تمارسُ هوايتها وتظل الأعينُ تتربَّصُها، هي التي تتمنى أن تبتلعها الأرضُ حينما يخدشُ أحدُهم حياءها بتعليق سافرٍ على مفاتنها، رغم أنَّها قد تكون في قمة احتشامها، لا يهمُّ هي لن تنجو!

"جنى" هي كلُّ فتاةٍ يكون نقطة ضعفها " الحب الأسطوري"، يخدعها أحدُهم بعباراتٍ ساحرةٍ، فتهيم عشقاً، وتنجرف خلف تياره الشهواني، دون وعي منها لما هي مُقبلةٌ عليه!

عزيزتي؛ ألا يكفيكِ أنَّه رجلٌ، وشرقي أيضًا، أتحتاجين أيَّ مبررٍ آخر يثبتُ لكِ أنه لا يقبل بك زوجةً أبداً إنْ أشبع رغبته منكِ مُسبقاً!

في مجتمعنا؛ " كلُّ امرأةٍ تعتبرُ ساقطةً حتى تثبتَ العكس"..

إن مررنا بدستورِ الرجلِ الشرقي سنجدُ المادة رقم واحد تقولُ:" أعطتكَ ما تريدُ، أنتَ لستَ بحاجةٍ إليها الآنَ "!

* * *

المشهد الرابع

"تفيد بإيه يا ندم وتعمل إيه يا عتاب
طالت ليالي.. ليالي الألم
واتفرقوا الأحباب.. واتفرقوا .. "

أم كلثوم

قال:

- أحببتُها كطفلتي المدللة، تقفز هنا وهناك، تضحكُ بصوتٍ مرتفع، كثيراً ما أثار هذا الأمرُ حنقي، لكن حينما أنظرُ لتعبيرات وجهها، أجدني أتراجعُ فورًا، تتملكني الغيرة من نظرةٍ خاطفة يمكن أن تلحقها من سواي، رغم طفولتها المسيطرة على تصرفاتِها، إلا أنني وجدتُ دفئاً لم أجده في سواها، كانت... كانت وطني في غربةِ الأيام، لكنني اليومَ بدونها.

الأمر لم يكنْ سهلا، لكنه حدث!

أيعقل؟!

- أن تنتبه للحبِّ وهو ينفلتُ منك، كأن تراقب إيمانك بأحدِهم وهو يتلاشى، أن ترى العالمَ عاريًا أمامَ ناظريك، دون هيبته، وتنتبه حينها لكلِّ التفاصيل التي أغفلتها، حتى أنك تستهلكُ وقتًا طويلًا لتعترفَ أمامَ نفسكَ أن ذلك يحدثُ فعلًا، كأن تكتشف أنَّ مَنْ تحب شبهًا بالآخرين،لا فارقَ !

* * *

- نحن مَنْ نعطي للآخرين قدرًا في حياتنا.

الآن تدرك ..

هي تتكلمُ مثل زميلاتها في الجامعة، لديها ملامحُ عادية تماثلُ فتياتٍ كثيرات، هو يشبه رجالاً كثيرة، تصرفاتُه الذكورية وكلماته المعسولة معتادة للجميع، لم يكنْ الملاكُ الذي تخيلتيه، وهي لم تكنْ استثنائية، الطريقة الساحرة في نطقِ جملةٍ بعينها، تكتشف أنك سمعتها بنفس الطريقةِ مراتٍ عديدة، إلا أنك لم تدركْ إلا حينما انقَّضت غشاوةٌ من على قلبك، وتقطعتْ السبلُ برباط روحك.

يصدمُكَ الواقعُ، الصدمةُ تتراجعُ لتصبح سخرية؛ لكن هذه السخرية العميقة بمجرد حدوثها لا يمكنُكَ التراجعَ عنها، رويداً رويداً ، تترك أثرها، تتخلصُ من هيمنةِ الخواطرِ والألم، تشعرُ بالقوة لأنَّكَ تحطم شيئًا عزيزًا عليكَ _عفواً كان عزيزاً_ وعلى حسبِ التعليقِ الذي يناسبُ هذه النهاية، " قد هانَ ما كانَ"

* * *

المشهد الخامس

نحن نريد ... فقط لمجرد الاحتياج "

ولا نضع في الحسبان أن لكل منح عطاء مقابل "

في رحلتي نحوَ البحثِ عن حياةٍ عاطفيةٍ مستقرة، مررتُ بعدة دروب، هناك دربٌ في العلاقات العاطفية يقول:لا بأسَ بقليلٍ من الاختلاف أو كثيره في الارتباط طالما وُجدت المحبةُ والتفاهم، سرتُ في هذا الدرب، سأحبُّ الشخص المختلف، لا بأسَ إن لم تكنْ صفات مشتركة بيننا !

كان الأمر جيداً في بداية الأمر، قليلٌ من الاختلاف مع كثيرٍ من التفاهم، وبدأت الزيادات في النقصان، والنقصان في الزيادة إلا أن أصبحت المعادلةُ غيرَ موزونة للطرفين، قررت أن اختلافه لا يناسبني، سأجدُ من يناسبني، وأحققُ التطابق أو قليله الموازنة .

بالفعل وجدته، تكاد ترى نسختين على الأرض من شخصٍ واحدٍ، لكن الأمر لم يطلْ كثيراً، باتت الرتابة هي كلُّ شيء، لم نمضِ سوى بضعة أيامٍ أو عساها شهورا كأنَّها سنون طوال، لا ليس المنشود.

أخبرتني أمي أنَّ الحبَّ " نقطة في بحر" تزوجي ثم سيأتيكِ الحبُّ مهرولا، هذا يعني أنني سأتركُ من أحبُّه؟! لكنني بأيّ حالٍ من الأحوال كنتُ سأهجره، أمضيت سنواتٍ جاهدةً أن يتغير ولم يحدث شيء، لا أشعر أنَّه يحبني، أم أنَّه يحبني؟! لا أدري، حقاً لا أدري، سأحادثه في الأمر، علنا نجد نقطة التقاء.

حسناً ليتني لم أحادثه، وجدتُ برود‌اً وتبلداً في الإحساس لم يسبقْ في أسلوبه، تراه علم بنيتي لهجرانه ؟ أم أنَّها كانت النية ذاتها عندَه ؟ أهذا يثبت أنَّه لا يحبني ؟!

ربما أمي محقة والحبُّ يأتي عقبَ الزواج أو ما شابه، حسناً سأخبر أمي بموافقتي على الزواج.

❊ ❊ ❊

هذا الشخص لا يعرفني حقاً، لا يتناسب فكرياً معي، وأظنه يتجمَّل قليلا أمامي، ليس قليلا إنما يتجمل بكلِّ حرف يلفظه.

عنَّفتني أمي عندما أخبرتُها بإحساسي، أخبرتني أنه يبدو عليه كل سماتِ الشخص الودود الخلوق، وأنها تظنه يحبني كثيرًا، ولا بأس إن لم أشعرْ بشيءٍ الآن.

تزوجتْ ولم أشعر بشيء، سوى بعض الآلام الناجمة عن كدماتٍ بالوجه إثر وابل الصفعات التي أنزلها بي زوجي عندما أخبرتُه والدته بتغيبي عن خدمتها وبناتها ذاك اليوم، ناهيك عن آلام الحملِ في شهوره الأخيرة، وضربات قلبٍ متسارعة قد تودي بالحياة في لحظات.

أمي؛ أريدُ الطلاق، لم أجد الحبَّ الذي أخبرتني عنه مسبقاً، غالباً لم أجد سوى عذابٍ مريرٍ، وإهانات نفسيةٍ وجسدية.

زادت حدةُ أمي، وأيَّدتها عماتي وخالتي ونور ابنة الجيران التي تطلقت ويلاحقها الخزي، لا أعلم عن أيِّ خزي يتحدثون، لكن هذا ما أريده، وأظنني سأجدُ الراحة في الطلاق هذا.

أمي؛ بدأ يتطاول عليَّ كثيراً ويهينني، كاد يقتلني بالأمس، لا زال أثر أظافره التى غرسها في عنقي تؤلمني !

ألقت أمي باللوم عليَّ، وأن هذا ربما حب أو غيرة، أو كما يقولون "ضرب الحبيب زي أكل الزبيب " .

الآن أصبحتُ طليقةً واقتنع الجميع بطلاقي، لحظة واحدة !

لم أجد ما تزوجتُ لأجله، أين ذاك الحبّ المزعوم ؟!

حسناً سأنتظر العوض، دائماً ما هو عندَ الله خيرٌ وأبقى، سأنتظر....

نظرات الناس لي مريبةٌ، أيُّ جرمٍ اقترفته!

البعض يرميني بنظرة شفقة، وآخرون نظرة احتقار، والبعضُ يلتهمني بعينيه التهاماً، كأنني فريسةٌ عمياء مُثقلة وطريدة .

أخبرتني أمي أنَّ هناك مَنْ تقدَّم لخطبتي مرةً أخرى، حسناً لا بد أن الحبَّ سيطرق بابي الآنَ.

لكن للأسف لا يبدو أنه الحب، إنه رجل خمسيني أو يزيد، يبدو أنه مَنْ يقولون عليه " عاوز يجدد شبابه بصبية " .

ماذا ! لا يُعقل!!

أجبرتني أمي على محادثته لدقائقَ، كانت أكثرَ أربع دقائقَ اشمئزازاً أشعرُ بها منذ سنوات، أخبرته بأنَّ نظراته الدنيئة التي يلاحقني بها تشعرني بالحاجة للتقيؤ، وانصرفت .

في مقر عملي، راودني كثيرون لكنني لم آبه، كدتُ أفقد أملي في رحلتي للبحث عن الحبِّ، إلى أنْ تعرَّفتُ على أدهم، رأيته مختلفاً، رأيته ملكاً وملاكاً، تودَّد لي بكلِّ الطرق، أخبرني بمميزاتي جميعها، ما كنتُ أعلمه وما خفي عني، قصَّ لي قصصه عن تجاربه التي فشلت مسبقاً، وأنه أوشك على فقد الأمل في أن يحبَّ من جديد حتى رآني.

تشجعت قليلا رغم قلقي، لكنني تجاهلتُ حدسي، وسرتُ خلف انبهاري به، إنه الحبُّ جاء حتى أعتابي، تزوجته، إنني الآن سأحظى بكل اللحظات التى كثيراً ما شاهدتها في الدراما التركية والهندية وكل تلك الخزعبلات، كلُّ شيء رائع، حياتي استقامت.

ماذا ؟ أدهم يخونني رغم اعترافه بالحبِّ لي ملايين المرات، عندما واجهته أخبرني أنها مجردُ شهوةٍ زائفة يمارسها دون أية مشاعر، لكن الحبَّ لا يبادله سوى معي أنا.

تباً لك ولحبك يا رجل، أيُّ حبٍّ هذا الذي يشوبه كل هذا التلوث، أيُّ حبٍّ يشوبه الدنس ؟

انتهى الأمر بطلاقي رغماً عنه، امتنعت عيناي عن البكاء على ما حدث معي، لم يمضِ الكثيرُ حتى أصبح أدهم قصةً منسية طويتها في صندوقي الأسود.

اكتفيتُ منه، حتى الآنَ مؤشراتي لوجود الحبِّ الحقيقي كانت إما زائفة أو مضللة، سأحبُّ نفسي فقط، هي لن تهجرني بإحساسٍ متبلدٍ، ولن تهينني، نفسي لن تخونني، إن هلكتُ ستهلك معي، وإن نجوتُ سيكون بها ولها، الآنَ أكتفي من البحث عن الحبِّ، كان دائماً بقلبي لكنني لم أصرِّح به، الآنَ وجدته.

* * *

مجتمعاتنا عقيمة التفكيرُ، ثقافةٌ لا تدري من أين أتت، لكن بالطبع جميعنا نعلمُ أنها تودي للهلاك، الحياةُ تصبح سباقاً، سباقٌ للحصول على أعلى المراكز، وإن كان هذا الأمر طبيعي من دوافع الإنسانِ للتفوق، والشهرة، باختصار " أن يكون"، لكن حينما يتحوَّل الأمرُ لسباق مباحٍ به كل الوسائل والطرق الملتوية، فقط للوصول، هذا ما يمكن تسميته بأنَّه " سحرُ الظهور".

ثم سباق الحصول على قصةِ حبٍّ خرافية، تجد طرفاً ينصتُ، يقدر، يحبُّ، يضحى، يتحمَّل، يجازف، يحترم الخصوصية، ويعطي مساحة، إلخ إلخ...

أتدري أن مثل هذه العلاقاتِ غيرُ صحيةٍ على الإطلاق، لأن أحد الأطراف تمنَّى أن يشبع متطلبات معينة، لكنه في المقابل لم يحددْ ما قد يدفعه في سبيل الحصول على كلِّ تلك المتطلبات.

نحن نريد ... فقط لمجرد الاحتياج ولا نضعُ في الحسبان أن لكلِّ منح عطاء مقابل، نخرج من سباق لنتورَّط بآخرَ، المجتمع لا يرحم، هذه لم تتزوج، هذا مدمن، هذه مطلقة، هذا كافر، وهذه جاهلة، هو بلا مستقبل، وهي بلا أخلاق.

هو رجلٌ لا يخطئ، وإن أخطأ فقد عفونا، هي امرأة، إن ظهر لعطاسها صوتٌ خارج منزلها لقبناها بالسافرة، كنت أودُّ أن أختم هذا المشهد بقولي سلاماً على مجتمعاتنا الشرقية، ولكن كيف السلام يلوح بأفقِ مجتمع أورث أبناءَه عاهاتٍ فكرية، ونفسية تفتك به ؟!

* * *

المشهد السادس

جاروا الحبايب علينا .. وعلى الهوى جاروا
بالأمس كانوا لينا .. ولغيرنا صاروا

وائل جسار

تنهيدةٌ طويلةٌ، ثم أطلق لجام لسانه قائلًا:

- رغم كلِّ ما حدث لازلتُ أتذكر، الذكريات تعيد نفسَها، الأماكن تحمل عبقَ ما كان يجمعنا، أنا لا أنسى، رغم أن النهاية وقعت، كيف للحبِّ أن يطرق أبوابنا من جديد ؟!

- صديقي .. الحبُّ الأول يترك أثراً يصعب محوه، ليس لأنه الأكثرُ صدقاً، فعادة ما يكون نتيجة لقلة الخيارات، هو أولُ ما يقابلك، أولُ ما يطرق أبواب قلبك، هو ما تمنحه بِكر المشاعر، يخترقك دونَ دفاعاتٍ، يأتيك بغموضه فتدهشك بدايته البرَّاقة، ثم سَرعَانَ ما يتلقى قلبك صفعة تُبطل سحرَ الحبِّ وتجعل روحك تتلوى كمداً.

ربما يختفي، وبعدها تخشى أن تعلق في وطأة " شبيه حبيب" مرة أخرى، ما أكثرهم أشباه المحبين، وما أقسى قلوبهم المتحجرة ! لكن لا بأس، سيكون بوسعكَ أن تحبَّ مرة أخرى، كما يمكنك أن تؤمن بأحدهم ثانية، لكن هذي المرة، تكون أكثرَ خبرة، أكثر حيطة، ومستعداً للانسحاب عندَ أول إشارة خطر، أو جرس إنذار.

في الحب.. الانسحابُ قد لا يكون عارًا، أحياناً المحاولات اليائسة لإعادة الحبِّ تزيد من قسوة الانسحاب، الأمر يشبه سكيناً بلا شفرة، يتحرَّك على عنقك ذهاباً وإياباً، لا هو يذبحك فتنتهي معاناتك وترحل، ولا هو يتركك طليقاً، إنه الحبلُ الذي لا تدعه يفلت منك، وينتهي بمشنقة لك، سيلتف حولكَ، وحولَ مَنْ تحبُّ، ويسحق كلَّ ما هو جميل، لن يبقى شيءٌ لتذكره غير الألم، أحياناً الانسحاب لا يؤلمُ قدرَ المقاومة !

لا تقاومْ.. انسحبْ .. روحك تذبل!

المشهد السابع

"" إلى أرواحهم ""

ضبابٌ دخاني سيطر على المكان، طلقاتٌ نارية طائشة، وأخرى مقصودة ومصوَّبة بإتقان نحوَ هدف لطالما انتظرته الأيادي لتناله بكلِّ سوء، أصواتٌ تعلو، ويرتفع صداها.

صوتٌ في لاسلكي: الفرقة ٢ ! تغطي علينا من الشمال !

الفرقة اتنين !

صوتُ طلقاتٍ نارية يدوِّي صوتُها في اللاسلكي، وصمتٌ يليه تواصلُ إطلاق النار.

الصوت مرة أخرى: جندي على الشمال، بدِّل موقعك!

وهرول شاب يُدعى "علي" قائد إحدى الكتائب، متجهاً حيث إطلاق النيران، قنابل الغاز بكلِّ مكان يكاد "علي" لا يرى أطرافه من شدةِ الضباب، توقَّف فجأةً، اتسعت حدقة عينيه كأنما باغته وحشٌ كاسر.

لم يكن وحشاً كاسراً، إنما وجد صديقه "أحمد" ممدداً على الأرض، ملطخاً بدمائه التي تسيل كأنما بركان ثار فنفض كلَّ ما بداخله من نيران خرجت على هيئة دماءٍ بريئةٍ ثائرة.

"علي" صارخاً في اللاسلكي: انقلوا المصابين للأمان، وغطوا على المسعفين.

"أحمد": قوم معايا يا بطل، دا جرح بسيط! قالها "على" وعيناه تدمع لإدراكه مدى خطورة جُرح صديقه؛ فالرصاصُ عالقٌ بصدره، وأماكن متفرقة في أنحاء جسده.

أبَى الصديق الجريح مغادرة موقعه، وقال بصوتٍ متقطعٍ وحروفٍ متلعثمةٍ ثقيلة بطريقته المازحة المعتادة : " دي أحلى موتة دي ولا إيه يا علوة " !

نهره "علي" قائلا: " قوم يا جدع موت إيه، يلا مفيش وقت لهزارك دا!"

"أحمد" وقد ثَقُلَ لسانُه أكثرَ، وبدأت أنفاسُه في التسارع : على! أم .. أمي ومراتي ياا .. على!

قاطعه "على": قوم يا أحمد هتفرح بابنك يا جدع ربنا يخليك ليهم!

أحمد: في ر.... رسايل تحت لبسي، وص....وصلها لأصحابها يا....صاحبي.

"علي" وقد علم بفراق صديقه المحتوم وبعيون غمرتها الدموعُ: رسايلك أمانة يا صاحبي، وبدموع تسيل قال: قول الشهادة يا أحمد، أشهدُ أنَّ لا إلهَ إلا الله، وأشهد أنَّ محمداً رسولُ الله!

وبدأ "أحمد" في التشهد، ولم يكملها حتى فاضتْ روحُه لبارئه.

حينها أدرك "علي" معنى أن دموعَ الرجال صعبةٌ كثيراً، في هذه اللحظة ذاق "علي" مرارة الفراق، وكيف يكون مذاقه المرير الأبدي.

لازالت النيرانُ مشتعلةً، وإطلاق النار مستمر، والشهداء يسقطون واحداً تلوَ الآخر، ولازالت أرواحُهم الطاهرة تحلِّقُ بالمكان، تدعو المتبقين للصمود؛ للانتقام لأصدقائهم ووطنهم من الخائنين المغتصبين مِمَنْ تجردوا من إنسانيتهم، أخلاقهم، ومللهم.

حمل "علي" صديق عمره، وخرج وإذ بطلقتين أطلقهما أحد القنَّاصين على كتف "على" لتصيبه في غير مقتل، ليستمر في إخراج صديقه الشهيد.

انتهى اليوم، وانتهى عمر صديق، وحاضرُ الأمس بات ماضياً وذكرى مؤلمة، كيف سيبلِّغ "علي" عائلة رفيقه بخبر استشهاده، لكنه آثر أن يؤدي أمانة صديقه.

يوم دفن جثمان الشهيد، كان يوماً تدمي له القلوب، سيداتٌ ارتدين

الأسود، تتوسطهن سيدةٌ كأنما تضغط على عينيها ألا تبكي، وتتظاهر بالصمود، إلا أنَّها لا تملك مدامعها فتفيض بما فيها، وعند خروج جثمانِه من المسجد متجهاً للدفن، استوقفتهم السيدةُ بصرخةٍ واحدةٍ مدوية: " ابني!! في الجنة يا حبيبي".

وأخرياتٌ منهاراتٌ لا يتمالكن دموعهن ولا تصرفاتهن التي شابهت المس أو الجنون.

وعلى الطرف الثاني من الحشد، فتاةٌ في العشرينيات، ملامحُها رقيقةٌ إلا أن حزنها قد حوَّلها لمسنةٍ، أثقل كاهلها المصاب، وتبدو وكأنَّها في أيامها الأخيرة لتضع مولودها.

انكبتْ على النعش، وانهمرت دموعُها وسطَ الحضور صارخةً " سبتني لمين، إنت وعدتني هتفضل جنبي، طب ابنك لما ييجي هيقول بابا لمين ؟!

وصرخاتٌ تعلو وبكاءٌ حارق، ومشاهدُ الأسى خيَّمت على الحاضرين، فآثروا دفنَ الشهيد، وقام بعض أهالي القرية بإبعاد عائلته عن نعشه؛ ليستكملوا مراسمَ الدفن، لكن الأم أبت إلا أن تحمل نعش وليدها معهم، رفض الجميع لكنهم تعاطفوا معها فتركوها تفعل ما تشاء، وهي هاتفةٌ " في الجنة يا حبيبي".

في المساء قرر "علي" أن يؤدي أمانة صديقه الشهيد، وكان "أحمد" قد كتب قبل استشهاده بيومين بعضَ الرسائلِ لذويه، وكأنَّما شعر بنهايته القريبة، وفِراقهم الأبدي.

فتح "علي" الرسائل، ودموعه تتساقط فخشي أن يبللها، فأزاحها قليلًا بعيداً عنه، كانت رسالة لوالدة أحمد، شقيقته، زوجته، وطفله الذي لم يأتِ للدنيا بعد، ورسالة "علي" وبعض الكلمات الأخرى.

التقطت الأمُ رسالة فقيدها الشهيد، وأخذ "علي" يقرأ الرسالة لوالدة "أحمد" قائلا: السلام عليكِ أمي الغالية التي لطالما اعتبرتها أركان حياتي، ملاذي وملجأي، وأنا الصغير مهما زادت أعوام سنيني ومساحة حياتي، فللكِ الركنُ المضيءُ الذي لم يصلْ له أحد.

أمي! أعلم أنكِ تتألمين لفِراقي كثيراً الآنَ، فإذا وصلتكِ رسالتي فإنّي جوار ربي كما تمنيت دائما، لعلَّ الفرصةَ لم تكن سانحةً لأودعكم، لكنني تمنيتُ لو احتضنتكِ كثيراً وقبَّلتُ يداكِ قبل مغادرتي لكِ للأبد، كنتُ أعلم دائماً أنه سيأتي يوم وأدعكِ لأفوزَ بالشهادة، كوني باسمة الثغر؛ فقد زفتني الملائكة للجِنان، أماه، ولكم يعزُّ عليَّ فِراقك، لكنه نداءُ الشهادة فما أنا برادّه!

دمعت أعين "علي" وتماسك أمام والدة صديقه، وتنهَّد، ونهض للمهمة الصعبة وهي تسليم زوجة صديقه الرسالة، التي هرولتْ وكادت تتعثر وتؤذي جنينها، لولا أن التقطتها إحدى السيدات، تناولت رسالتها وكانت كالتالي:

صديقتي، حبيبتي، وزوجتي، لم أحبكِ يوماً، فما الحبُّ سوى ترهاتٍ وكلامٍ لا معنى له مقابل ما أحسستُ به في وجودكِ، فأنتِ ملاذُ مَنْ لا ملاذَ له، أنتِ الأمانُ في أرقِّ معناه، ومن يسقط وأنتِ بجانبه، بل من يموت وأنتِ أنفاسُه المتصاعدة.

اذكريني بالخير دائماً، وحدثيني متى أثقلتكِ الحياة؛ فأنا سأبقى بقلبكِ للأبد، وسأشتاقُ إليكِ كثيراً.

بالله! لا تبكين وظلّي الجميلة المزهرة بروحك الطاهرة دائماً وأبداً، وأبلغي ابني أن أباه يحبه كثيراً، وما تركه سوى لأداء واجب وطنه، اجعليه

مثلكِ في الأخلاق، ومثل أبيه في التضحية، اجعليه ضابطاً كأبيه، وامنحيه في سبيل الله وحبِّ الوطن.

حانت لحظة رسالة "علي"، تناولها ليقرأ ما أوصاه به رفيقه الشهيد؛ كان يظنُّ وصيته أن يرعى أسرته وذويه، إلا أنه تفاجأ من نصها والتي كانت: إلى الصديق والرفيق والأخ الأمين، لم تكن يوماً غريباً، وكنتَ خيرَ السند والمعين، لا أعلم من منا سيغادر دنياه قبلَ الآخر، فكلانا يا صديقي مغادرها عاجلًا أو آجلا، بيد أنك إن قرأتَ رسالتي فسأكونُ أنا مَنْ سبقتكَ لجنتي.

لن أوصيك خيراً بأهلي، فهي مهمةٌ لن تعزَّ عليك أبداً، لكني أوصيكَ بما أعلمه وأنتَ تخالني عنه جاهلاً، أعلم أنك تُحب شقيقتي الصغرى، ولربما هي تبادلكَ نفسَ الشعور، لم تشأ أن تبادرني لأنكَ لا تملك من النفقات ما يعينكَ على الأمر.

صديقي، لن أشعرَ بسلام في مآلي الأبدي إذا كنتُ قلقاً على أحبتي، بادرْ بطلبها، وإني لمبارك لكم هذي الزيجة، سأكون لجانبكم حينها بروحي، فلستُ مغادركم سوى بجسدي، إنما الروح خالدة.

- إلى هنا يكونُ الشهيدُ قد ختم رسائلَه، إلا أن ذكراه لازالت خالدة، والدته وزوجته والجميع لازال يذكره، غيابه لازال جرحاً يُدمي قلوبهم، كانت الخالة سعاد من قصَّت هذي القصة على مسامعي حينما قابلتها، كانت مختفية، ظللتُ أبحثُ عنها منذُ وطأت قدماي حارتنا، وجدتها، لكن لم تعد الخالة كما عهدتها، الحزنُ يأكلُ قلبَها، ويبرد نيرانها منزلة فقيدها في مثواه الأخير!

* * *

المشهد الثامن

أروح لمين، وأقول يا مين ينصفني منك٠٠
ما هو إنت فرحي، وإنت جرحي، وكله منك٠٠

أم كلثوم

أتتني باكيةً، ثم قالتْ:

- ناديته كثيرًا ولم يلتفتْ، بكيته أكثرَ ولم يشعر، رجوت عفوه عن ذلةٍ لا أعلمها،

وأطلت الحديثَ عن ذكرياتنا علَّ قلبه يلين، أقسمتُ أنني على عهده باقية، طاردت عينيه الماكرتين علَّني أجدُ الجوابَ فيهما، تشبثت بحبال وصاله المهترئة، ثم سَرعَانَ ما أفلتُها بكاملِ إرادتي، وأعلنتُ الاعتزال!

لم أسلم الراية البيضاء، لأنني لم أستسلمْ، إنَّما كان القرار، لم تخطفني تلك الشرارةُ المتوهجةُ التي لطالما اعتدت رؤياها حين التقينا، أحسستُ بالغربة، لم أشعرْ بسواها!

❊ ❊ ❊

-شعورُ الغربةِ كان سبباً كافياً للنهاية؛ الغربةُ في حضرة المحبوب غيابٌ يلزمه تبرير، أما الدليلُ فلست قاضياً لأعدل، محكمةُ الحبِّ لا تُنصفك أبداً، إنها تسلب حقوقك الروحية تباعاً لتتركك تتجرع الأسى، ولا تدري نفسك بأيِّ ذنبٍ قُتلت!

❊ ❊ ❊

المشهد التاسع

.....

غطت المدينةُ في سُباتٍ عميق، غالباً الجميع نيام إلا قليلا، حتى الحيوانات ترفض أن تعكر صفوَ الليل، هذه اللحظات من الليل تجعلني سعيداً وحزيناً في آنٍ واحد، أتساءل عن الذي يحمله كلُّ هؤلاءِ الناس في صدورهم، ما نوع القصص التي توصد عليها كلُّ تلك الأبواب!

صرخةٌ واحدةٌ أيقظتني مما غرقت به من أفكار، الأنوار تُضاء، الأصواتُ تعلو، هذا المشهد يتكرر كثيراً في هذا التوقيت، إنها " ملك " طفلة العشر سنوات، مريضةُ السرطان، توجهت لزيارتها في اليوم التالي!

كيف حالُ ملاكنا الجميل اليوم؟

تمسكت قليلا بيد والدتها وابتسمتْ: سأكون بخير، أتألم قليلا لأنني سأخرج من شرنقة المرض، لأصبح فراشةً جميلةً، هكذا أخبرتني أمي!

أقسم أن كلمات هذه الصغيرة كادت تبكيني

تضحك وكأنَّ أمورها جميعها بخير، ثم سرعانَ ما تهاجمها الخلايا الخبيثةُ؛ لتنهش سعادتها، وتحوّلها صرخات يدمع لها القلب!

-كنت أفكر ما إذا كنتِ تتمنين شيئاً بوسعي توفيره لكِ؟

صمتت لبرهة، ثم أخبرتني بلا تردد، " أريد شعري، لا أدري لماذا يتساقط هكذا، كان جميلا للغاية، كان لدىَّ العديد من الأصدقاء، لكنهم ابتعدوا عني جميعهم، حتى أنني توقفتُ عن الذهاب للمدرسة، أصدقائي يخشون الاقترابَ منِّي حتى لا يسقط شعرُهم مثلي!

أمي وعدتني أنني سأغني على المسرح كما أردتُ دائماً، وسيصفقُ لي الجميع، لكن مَنْ سيصفق لفتاةٍ بلا شعر؟!

- أنتِ لا تزالين جميلة .

- لا بأس .. سأصبح فراشةً جميلة، أمي وعدتني أنني سأكون مثل سندريلا، وسأجد الأميرَ الوسيم، أتمنى ألا ينزعج من بكائي وصرخاتي، الأمر ليس بيدي، أتألم كثيراً في تلك الجلسات.

سأخبرُكَ سراً، أنا أكره الكيماوي، يؤلمني كثيراً، بكيت كثيراً، وتوسلتُ للطبيب أن يتوقف عن هذه الجلسات، لكنه أخبرني أن بداخلي كنزاً، لهذا تحاول جراثيمُ شريرةٌ أن تسرق هذا الكنز، والطبيب يحاربها، هو أخبرني بأنه سينتصرُ على الأشرار مثلما يفعل سوبرمان.

أنا خائفة كثيراً، أخشى أن أرحل وأترك أمي وحيدةً، تركها والدي أيضاً وذهب إلى السماء، وعدتها أنني لن أتركها، لكن هذه الجراثيم الشريرة تريدُ أن تفرّقنا.

أنت طبيبٌ أليس كذلك؟، أخبرْ أمي إذن بأنني سأكون بخير، الطبيبة الشريرة أمس أخبرتها بأن حالتي سيئة، وأمي بكت كثيراً.

-امممم صغيرتي أنا طبيب، لكني لا أعالجُ الناس، أنا فقط أستمعُ إلى مشاكلهم، أنا طبيبٌ نفسي .

-إذن اجعلْ أمي لا تشعر بالحزنِ إن رحلتُ أنا، أرجوك اجعلها سعيدةً، سأذهب لأبي، وهي ستبقى وحيدةً، ستشتاق إليَّ، ولن تأكل جيداً، هي لا تأكل إلا إذا أجبرتها أنا، نحن أصدقاء الآنَ .. أليس كذلك ؟!

أتعدني أنكَ ستجعل أمي تأكل جيداً، وتبتسم إنْ إنا مِتُ، عدني أرجوك .

- أعدُكِ .

- أتعلمين يمكنني أن أجعلك فراشةً غداً، لن ننتظر حتى تكبرين!

- كيف؟

-إنها مفاجأةٌ، انتظري فقط حتى الغد!

ذهبتُ في اليوم التالي إلى المستشفى، وقد أحضرتُ للصغيرة، فستاناً أبيضَ، وأجنحةً ملونة، وتاج الأميرات، اليوم فقط سأجعلُ هذا الملاك يبتسم من جديد، مثلما اتفقتُ مع والدتها.

مهلًا ماذا يحدث؟!

إنها والدة الطفلة تبكي، ماذا حلَّ بالصغيرة ؟!

اقتحمتُ فوراً الغرفة، وجدت ملك شاحبةً كثيراً، الممرضة والطبيب يبدو عليهما الارتباك.

-ملك.. صغيرتي أحضرت لكِ الأجنحة مثلما أردتِ .

بجفون متثاقلة نظرت الفتاة محاولةً تحريكَ شفتيها للحديث فلم تقدر، فاكتفت بابتسامةٍ باهتةٍ، دقائق معدودات وبدأت الفتاةُ تلفظُ بعضَ العبارات، هرولت لها والدتها، وتشبثتْ بيديها، " أحبُّكِ أمي، الجراثيم تؤلمني، حاولتُ أن أهزمها، لكنها أقوى مني، أشعرُ بالبردِ كثيراً يا أمي"

دقائقُ قليلةٌ من الانهيار الصامت الذي أحدثته والدتها

تتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتتت، ها هي نغمة مشئومةٌ تعلنُ رحيلَ الملاك ! ملك !!!!

- ملك، لا لن ترحلي، ستكونين بخير، ستخرجين فراشةً جميلةً من الشرنقة، أحضرتُ لك الأجنحة يا ملك!!

الثوبُ الأبيض يا ملك، انهضي سترتدينه لتصعدي على المسرح، وتغني بصوتكِ الجميل!!

سيحبُّكِ أصدقاؤكِ من جديد يا ملك، لكن لا ترحلي!!

كيف تتركيني وحيدة هكذا !!

مَنْ سيعتني بي يا ملاكي، لا تفعلي مثل والدك وترحلي، ابقِ يا ملاكي لا ترحلي!

❊ ❊ ❊

اليوم، واليوم فقط أدركُ معنى الخسارة، وردتْ على مسامعي قصصٌ كثيرة عن الحبِّ، والفِراق، قصصٌ لا تُنسى، لكن اليوم أدرك فقط معنى الخسارة والفِراق!

تمتلئ مستشفياتنا بالعديد من الفراشاتِ والملائكةِ الصغار، أطفالٌ لا ذنبَ لهم في هذه المعركة، لا يدركون مدى بشاعةِ الواقع، ويتمسكون بأمل يبثه فيهم الأطباءُ، أنهم سيكونون بخير.

يبتسمون، وسَرعَانَ ما تدوِّي صرخاتُهم إثر خلايا الورم الخبيث، يرحلون بعدَ رحلةِ عذاب، تاركين خلفهم ذويهم في رحلة عذاب أخرى تتجدد، ونيران لا تنطفئ، يتجرعون الأسى من فراق فلذاتهم.

ولكم يعزُّ على الأهل أن يروا طفلهم يكتوي بنار المرض، يسمعون صرخاتِه كلَّ ليلة، يرون الحسرة في قلوبهم الصغيرة، وليس بيدهم حيلةٌ

لمنع كلِّ هذا، أن ترى عزيزاً يعاني، وتكتفي بالمشاهدة، وكأنَّ يديك مكبلتان، أن تفارق عزيزاً ولا تجده حينما تشتاقُ إليه، هذه هي الخسارة الكبرى.

ضع هذه الجملة أمامَ عينيكَ وأعقلها جيداً " أن تستيقظَ كلَّ يومٍ وأنتَ بكامل عافيتك، أنتَ في جنةٍ دنيوية، كُفْ عن الشكوى، كلُّ البلايا غير المرض تهون "

أن تستيقظَ وأحباؤك في الغرفة المجاورة آمنين سالمين، تستطيع أن تحادثهم، وترى ابتسامتهم، فأنت محظوظٌ، هذا مكسبك، وكلُّ الخسائر غيرها تهون!

قلْ الحمدُ لله للحياة التي لازالت تسري في عروقك، للعافية التي تتردَّدُ بين جنبيك، وللأمن الذي يجعلك تغمض جفنيك مطمئناً.

* * *

المشهد العاشر

" جميل وأسمر وطبعه عنيد
أقرب له٠٠ يروح لبعيد
ويوعدني ومالوش مواعيد٠٠
ويوم ما يجيني٠٠ يتأخر "

محمد قنديل

توالت الزياراتُ على عيادتي، معظمهم لا يريد حلا، ولا علاجاً، فقط يريدون مَنْ يستمع باهتمامٍ، مَنْ يشعر بما يؤلمهم، ولا يسخر مما يُؤرق أفئدتهم، وقد كان منهم الذي قال:

- أسموها " شذى"، وألقبُّها بـ " ذات الصون "، هي ذاتُ الروح العطرة، والكلمات المنمقة، كان لضحكتها وقعٌ على قلبي يصعب تفسيرُه، لم تكن يوماً مثل الأخريات، أو لربما لم تختلفْ عنهن شيئاً، لكنني رأيتُها عالماً منفرداً، مزيجٌ غريبٌ من المرح والحياء، أراها فأتجمد ساكناً دونما حراك.

لم أكنْ هكذا يوماً، فقط في حضرتها، يختفي كلُّ الشغب الذي أجيده، وتنسحبُ مني العباراتُ البرَّاقة، والجمل الرقيقة التي اعتدت إلقاءها على مسامع الفتيات.

في حضرتها أعود طالباً في لجنة الامتحانات، يودُّ لو يلقِّنه أحدهم بعض الإجابات حتى لا يرسب، هكذا أشعر في حضرة ذات الصون.

اليوم، تجرأتُ واعترفتُ بحبي لها، هي لم تصفعني كما تخيلت، لكنها لم تجارِ مشاعري، هي فقط مضت.

مضت دونما عودة لنقطة التقائنا، كانت خائفةً، أقسمتُ لها أنني على العهد باقٍ، أنني لن أصنع بها صنيعة السابقين، أنني لن أخذل قلبها أبداً، فقط فرصة، لكنها حرمتني حتى من الأمل في حدوث الأمرِ، أيعقل أننا نمتنع عمَّا سيجعلنا سعداء بفرض الخوف اللا مبرر؟

* * *

-الخوفُ لا يمنعك فقط من السعادة، إنه يمنعك من الحياةِ ذاتها، الخوف يجعلك تختفي من حياة أحبتك ظناً منك أنك غيرُ جدير برفقتهم، أو أنك ستؤذيهم، وربما ستتأذى منهم، يجعلك تنجو مرة، وتهلك مراتٍ كثيرة.

نخشى الحبَّ لا لأنه سيء؛ إنما لأن النهايات دائماً غامضةً ومخيفة.

المشاهد تبدو واحدةً رغم أن السيناريو مختلف، وكيف يأتي الحبُّ في الأساس، ما إن تستبدل خوفك بذراتٍ من الأمان حتى تجدك تبعت تياره الذي تتلاطمكَ أمواجُه في بحر لجي، وينتهي الحبُّ من حيث يبدأ الخوف.

كانت خائفةً يا صديقي، وهو مبررٌ قويٌ للرحيل!

* * *

المشهد الحادي عشر

" بكرا بيخلص هالكابوس، وبدل الشمس تضوي شموس
وع أرض الوطن المحروس
راح نتلاقى يوما ما "

جوليا بطرس

كلُّ شيءٍ جميلٍ وهادئٍ في الشتاء، المخيمُ لم يكن جميلا ولا حتى هادئاً من" الرفيد ".

وقرب الجولان السوري، ظلت الرجفةُ والدموع التي توارتْ خلفَ الخيام المهترئة هي الراعي الرسمي لشتاء هذا الموسم!

كنتُ في الحادية عشر عندما نزحتُ لتلك الخيام، كان القصفُ يشتد، لم أعِ يومها أيَّ فريق نصيرنا وأيهم العدو، جميعهم تشابهوا في الضراوة، ونحن لم نملكْ سوى الهرب لحيثما لا نهلكُ.

"حفصة" كانت أطرافُها متجمدةً، كانت تصرخ وهي طفلةُ الثلاث شهور، وكأنَّ قدرها فرض عليها ألا تتمَّ غيرَ هذه الأشهر المعدودات وتمضي للسماء، أو لعلَّ حظ شقيقتي كان أفضلَ من أجيال عمَّرت في هذا الخرابِ المُهلك.

لا أنسى وجه أبي ذاك اليوم، ومحاولاته المستميتة ليجعلنا نصلُ إلى ملجأ يجيرنا من الرصاصِ الشريد، والغازات التي تسلبُ حقكَ الشرعي في التنفس، نجوت وبعض العائلة، وتوارى أبي خلفَ الأنقاض.

كنت لا أزال صبياً هزيلًا حينما اقتحم بعضُ الملثمين مخيمنا الجديد، في لحظاتٍ وجيزة عقبَ مناوشاتٍ لا جدوى منها، سالت دماءُ مَنْ لم يؤسرْ من شباب المُخيَّم، هذا اليوم لم ترَ الشمس وجوهنا، لا لأنَّها لم تشرق؛

لكن بسبب الأدخنة المتصاعدة إثر الحرائق التي نشبتْ في المخيم، وضباب الغازات المتفجرة التي لاحقتنا.

" ألمى " كانت هناك...

من قال أن الحربَ لا تعرف الحبَّ، كان حبِّي الأول وليد ساحات المعركة.

أحببتها كحبي للوطن،أحببتُها بحجم المخيم ولاجئيه، وبقدر كروت مؤن الغوث، أحببتُها بعدد مرات انقطاع الكهرباء، وبلغ حبي لها حصيلة الشهداء، وعدد من خرجوا ولم يعودوا، أحببتُ ابتسامتها، لكنها لم تكنْ تبتسم هذه المرة كعادتها.

انقشع الضبابُ قليلًا لأجد يداً غليظة وأعين بارزة مُصوَّبة نحوَها، للحظةٍ شُلت أطرافي وعُقد لساني، الوغد يجرُّها جراً رغماً عنها، ضحكته الخبيثة تفصحُ عن نواياه الدنسة.

صرخاتُها جعلتني أتوقَّفُ عن التفكير وأنطلق نحوها، انتهتْ أمي لما أنا مقدم عليه، فسارعتْ بمنعي لتتلقى هي رصاصة الموت.

ما بين أمي ودمائها التي غطتْ وجهي، وبين " ألمى " التي أزهقوا طفولتها قبل جسدِها وروحها، رائحةُ الموتِ لازالتْ تحوم!

انتقلتُ إلى بلدٍ غير البلد، وها أنا قد تخطيتُ الثلاثين، و رغم نجاتي، إلا أن روحي لازالت تحتضرُ في المخيم منذ ليلتي الأخيرة به، لازال طيفُ ألمي وعائلات المخيم يراودني، وكأنَّها جميعها تتحسر بأيّ ذنبٍ أُنتُهِكتْ حرماتُهم، وسُلبتْ أرواحُهم!

الشتاء والمطر، يحيي بدواخلنا دائماً ذكرياتٍ مُعبَّقة برائحةِ الموتِ الموسمي !

❊ ❊ ❊

المشهد الثاني عشر

" يا حبيبي طال غيابك ليه يا قاسي ..
يا حبيبي إنت فاكر ولا ناسي..
كان مُنايا تيجي وتشوفك عيوني..
كان مُنايا ألتقيك جنبي تواسيني.."

فريد الأطرش

كانتْ من الذين يخشون البوحَ في حضرةِ غريب، منحتها ورقةً بيضاءَ تماماً، وطلبت منها أنْ تُدوِّن ما تشعر، فكان:

قلبي أعلنَ الحِداد منذُ ليلة فِراقنا، ارتدى الأسودَ السرمدي، سراجُ حبكَ فقط هو من يضوي عتمة قلبي، قلبي في غيابكَ غريبٌ لا يجد وطناً يُؤنسُ وحشته.

حاولتُ التخلص منكَ، لكنني وجدتكَ تعلق بي أكثر فأكثر، اليوم أبدو كستينية، ولازلت في العشرين، أتساءل ما حالكَ اليوم، أترددُ على هاتفي، اسمكَ في أول قائمتي، لكنه سيكون آخر اسم أراه يهاتفني، أتمنى أن أستيقظ على رسالةٍ نصيةٍ منكَ، تخبرني أنكَ لا تخسرني، أو أنكَ لن تستسلمَ.

لكن لا تقلْ أنكَ اشتقتَ إليَّ، لا تقلها.

سأضعفُ كثيراً.

وأتألمُ أكثر.

وما بيدي سوى أني أحبُّكَ أكثرَ!

* * *

المشهد الثالث عشر

دا حبيب إمبارح، وحبيب دلوقتي٠٠"
دا حبيبي لبكرة ولأخر وقتي٠٠"

أم كلثوم

ظنوا به مسًا أو جنونًا، ذاك المسنُّ الذي يخاطبُ حائطه ليلَ نهار، وربما حديثه موجهاً للصورة الزيتية الموضوعة أعلى المدفئة، لا تتضحُ ملامحُها، إلا أنَّها للوهلة الأولى تبدو وكأنَّها أرجوحة فارغة، وظلال فتاةٍ راحلة.

العم حسان، صاحبُ الأعوام الستين، ذاك القابعُ في رقعةِ الأسرار الغامضة، والذكريات التي لم يشأ أن يرويها لأحد، وآثر الاحتفاظَ بها، أو لربما لأنَّه لم يجدْ من يشعر بوطأة ما يكنُّه.

-ألازلت تتذكرها؟!

- وكيف أنساني؟

-أتشتاقها ؟

تنهيدةٌ ممتلئةٌ بشجنٍ دفين، ونظرة عميقة إلى اللوحة؛ آه يا جميلتي، وجودهم لا يعزي غيابكِ، ماذا أفعلُ بحياة أنتِ لستِ بها، مَنْ سيرممُ ما هشمه رحيلُكِ، قلبي مثقوبٌ ولا يسدُّ فجوته سوى رأسِكِ التي تميلُ على صدري.

بالله لم تُخلقْ من تملأ ثقبَ غيابكِ بعد، نسوةُ العالم في عيناي اليوم سراباً لا أراه!

كانت طفلةً كبيرة، حينما تزوجنا كانت لا تزال صبيةً جميلة، أنجبت أطفالي وظلت هي طفلتي البِكر، تقدمت بالعمر وكانت لا تزالُ جذابةً، أحببتُ كلَّ تجاعيدها، والشعيرات البيضاء التي كانت تنسدلُ خلسةً حيناً من حجابها.

كانت تبكي إن قمتُ بمعاكسة إحداهن، كانت تخشى أن أخونها يوماً، ليتها هنا لكنت أخبرتها أنني منذُ رحيلها لا أطيقُ النظر في وجه أيّ امرأةٍ سواها.

رحلتِ حبيبتي هأنذا أعاني من تناقضِ العواطف في رحابِ القلبِ المُعذَّب!

كيف للحبِّ أن يدوم رغمَ الغياب؟ وكيف كلُّ هذا العمر الأمرُ يبدو خيالياً ؟!

يا ولدي ..

الحبُّ لا يقاس بالدقائق أو السنوات، الحبُّ لا يُقاس بالعمر، الحبُّ هبةٌ إلهية، حتى الفِراق له هيبته ومقامه، لا يغرنَّكَ حبُّ شبابِ هذا الجيل، والكلمات المعسولة التي يتبادلونها، أو العهود الأبدية التي يقطعونها.

يا ولدي ..

أن تحبَّ، هو أن يقتحم حياتك أحدُهم فتصبح مسئولًا عن حياته وما بها، الحبُّ صدقٌ وليس وعداً، الحبُّ هو أن تتشاركا الحزن والسعادة، أن تتحملا مشاق الحياة سوياً، لا أن تتسابقا في إثقال أحدكما الآخر.

الحبُّ لا يعترفُ بالكبرياء لكنه لا يستقيمُ سوى بالاحترام وحفظ كيان الآخر.. الحبُّ كرامة!

أن تحبَّ ليس ألا تبتعد، الحبُّ هو أنكَ في كلِّ مرةٍ تبتعد تعود مهرولًا لأحضان الحبيب، لحيث تنتمي، يصبح هو موطنك حينما تحيطك الغربةُ، الحبُّ هو أن يصبح الآخر أول الأبناء، وثاني الآباء، وآخر الأحبة.

يا ولدي، حتى الفِراق والنهايات فقدتْ أصولها في أيامكم.

وهل للنهايات أصول ؟!

للفِراق والنهاية هيبة، ربما الأمر يؤلم، يشبه أحياناً الحجر الثقيل الذي يضغط صدركَ ولا يبرحُ موضعه، كالجرحِ الذي لا يبرأ، كلهيب لا ينطفئ، وربما يدفعنا الفِراق ولحظاته نحوَ الشاطئ ولا تغرق مثلما تظن، إننا مغرمون دائماً بالنهايات المأساوية، الجسدُ يموتُ والحبُّ يبقى، يبقى فقط حينما نؤمن بأنَّ لنا عودة !

يا ولدي! هذه الأيامُ ينقصها شيءٌ؛ ينقصها حُبٌّ!

* * *

المشهد الرابع عشر

إن كنت ناسي٠٠ أفكرك"
ياما كان غرامي بيسهرك
وكان بعادي بيحيرك
وإن كنت ناسي٠٠ أفكرك "

هدى سلطان

كانت " أسما " من الفتياتِ اللاتي يرفضنْ اللونَ الرمادي، كانت تحبُّ الموقف الثابت، حينما جاءتني لم تكنْ تبحثُ عن إجابة، فقط كانت تريدُ مَنْ يؤكدُ لها أنَّها أصبحت تسيرُ على الطريق الصحيح.

قالت: في إحدى الليالي التي تعصفُ بنا الخلافات، سألتُه أيحبني أم لا؛ فأجاب ببرودٍ لفح قلبي سقيعُه، وبدون تردُّدٍ " لم أعدْ أدري".. وهنا وضعتُ نقطة، وانتهي الأمر!

حينما يتعلَّقُ الأمر بالحبِّ، لا يوجد سوى أبيض أو أسود، إما تحبني ويكون حبي شفيعاً لي، رغم الخلاف والعيوب والظروف تحبني، أو أنَّكَ تتوهمُ حبِّي، فتتشبث بخيوط أخطائي لتصنعَ منها مشنقةً لعلاقتنا.

أما " لا أدري " ليست بجوابٍ أبداً، هي ليست موقفاً عادلا.

التردد في الحبِّ إن دلَّ على شيء فإنَّه إما يدل على الخوف والمُحبُّ لا يخاف، أو أن بنيانه هشاً، والحبُّ يُبنى على أعمدةٍ مصقولة من الثقة والتفاهم، والاحترام، يتوجها الكرامةُ والأخلاق، إما تحبني أو لا تفعل وامضِ !

❊ ❊ ❊

يحبُّكَ الجميعُ عندما تكون ناجحاً، جميلا، مستقيماً ومتوهجاً، لكن من يحبك رغم درايته الكاملة بسيئاتك وعيوبك أحقُّ بقربكَ، الإنسانُ مخلوقٌ من وهن، برغم كلِّ قوته، فإنَّ دورة حياته تقتضي خلقه من ضعف ثم من بعد ضعف قوة، ثم ضعف، من فشل لنجاح ثم فشل، الإنسانُ عتمته تحيطُ بنوره، لهذا حينما تجاور، جاورْ مَنْ يتقبل كلَّ هذا الضعف، الفشل، العتمة، اخترْ لقلبك خليلًا ينير ثناياه.

اخترْ لقلبك ما يليقُ به!

* * *

المشهد الخامس عشر

الجسمُ في بلد والروح في بلد..
يا وحشة الروح، بل يا غربة الجسد"
إن تبك عيناك لي من كُلفت به..
من رحمة، فهما سهمان في كبدي "

ابن عبد ربه الأندلسي

"وخائفٌ أنا أن أصبح مجرد رقم إضافي في تِعداد الموتى"

بخطوطٍ متعرجةٍ وعلى ورقةٍ متسخة كأنما حَطت عليها الأقدامُ طويلا، خُطت تلك العباراتُ بيد أحد الشباب الذي دفعه الحظُ لأن يفقدَ حريته، ويأنس جدرانَ محبسه.

وكانت خاطرتُه كالتالي:

الموتى الأحياء، كنتُ في صغري أخشاهم، لأنني كنتُ أظنهم حقائق، لم يدرْ بذهني حينها أنَّهم خيالات، عندما كبرتُ قليلا أدركتُ أن أفكاري لم تكن جميعها خاطئة، إنهم خيالات واقعية، مبعثرة في حياتنا لكن جذورها ممتدةٌ من جيلٍ لآخرَ

أنا من تسلل الموتُ لي خلسةً، أنا من صرختُ بوجهه مزمجراً لا أخشاكَ؛ فقد رأيتُ من الهول ما يفتكُ بالقلب مراراً ولا زالتُ صامداً.

لا ترمقني بنظرة استهجان، لا تصدقني إن أخبرتكُ أنني بريءٌ، أنا لا أعترفُ بالدلائل والإثباتات، أنا لن أعترفَ بأوراقٍ وحبر، وأنسى دموع أمي المنسكبة الحارقة، إنها خيرُ دليلٍ أنني لم أذنبْ !

أنا شابٌ لم أتجاوز ربيعي العشرين وبضع سنواتٍ تزيد، لم يعد يهمني لِمَ أنا هنا، لن أزايد في الأسئلة والاستفسارات، أنا فقط لا أريدُ الموت هنا، ثَقُلَ اللسانُ من كثرة تكرار " أنا بريء"، لا يهمُّ الآنَ ماهية جُرمي وكنهه، أنا فقط أريدُ الحرية، أنا المنسي؛ والمصير مُؤجَّل لأجلٍ غيرَ معلوم، لأبقى يوماً بعدَ يوم رهن جملة " يُؤجلُ النطقُ بالحكم للجلسةِ القادمة" فهل عساني أحيا حتى تلك الجلسة المجهولة تحت هذا السقف اللعين!

اسمي! لا شأنَ لكَ باسمي الافتراضي الذي يتردَّدُ على الألسنةِ ..

أنا جميعهم..

أنا الموت في ثوبه الجديد!

أنا صرخة أم لمُصاب وليدها، أنا دمعةٌ تثورُ وتصطفق شرارها في عين أب، أنا جرحٌ دامٍ في قلب زوجة من فُقد، أنا حسرةٌ وبكاءُ طفلٍ على والد حُرِمَ منه، والخبر عنه انقطع، أتعرفني ؟

جدرانٌ لعينةٌ اعتدتُ أن أمقتها، كيف لأربع جدران دونية أن تمنعني عن الحياة، إنَّها تسلبني كلَّ شيء، يقذفون لي بعض الفُتات الذي لا يستساغ، تقاسمني إياه بعضُ الجرذان، والحشرات التي أصبحت أصدقائي الوحيدين، المرضُ يفتك بي، أعضائي تموت تباعاً، أشعر بأنني سأنتهي وكأنَّ كلَّ الأشياء تتسابق أيُّها سيقتلك أولا، بطريقة أسرعَ وجهدٍ أقلَّ.

يا أمي؛ لم يعدْ للحياة ذاك المذاق القديم، هذه الجدران الأربع اللعينة تلعبُ دورَ القبضة التي تعتصرني كحفنة من الرمال، وهم يضغطون بقوةٍ، لكن ما إن يجيء القضاء وتتخلى قبضتُهم عن الرِّمال، لن يستطيعوا حينها قهرَ روحي؛ لأنَّ روحي باختصارٍ يا أمي هلكتْ مذْ وطأت قدماي هذا المكان، وظلت تحتضر وتحتضر حتى فارقتني، وتركتني أبكيها عبثًا.

بالله لا تبكين يا روحي، أمي لا أريدُ أن تزوريني من جديد، أخشى عليكِ أن تريني وقد خارت قواي وجفت روحي فيصيبكِ الغم.

أمي! لعلكِ أقرب مني إلى الله! اسأليه الخلاصَ لي، الخلاص وإن كان الموت خلاصي، فاسأليه أن يجعله قريباً!

حبيبتي! ورفيقة الدربِ الذي لم يكتملْ، لا أجدُ لصرخةِ روحي صدراً يُجفف عن شحوبه الذكريات، عزيزتي جُرحي الدامي لازال لهيبُه مشتعلًا، توقَّفي عن خديعة الأملِ في الحرية، ربما ستمضي الحياةُ في غير سبيل.

أبي، أصدقائي، وكلُّ من صادفته يوما، جدران منزلي، دراستي وجامعتي، حُلم التخرج، ومنحة الدراسة، والعمل، كلها أحلامٌ تتلاشى أمامي، وتنتثرُ في الهواء كما الرماد.

ما عادَ في عيني دموع، توقفتُ عن عدِّ الأيام التي أقضيها هنا، امتلأت جدراني ولا يسعها المزيد، لكن جدرانَ صحيفتي الجنائية لازالت تتسعُ للمزيد والمزيد.

فجيعتي يزداد سوءها، أنينُ الليل يحفرُ بي ألفَ انكسارٍ وانكسار، هذا الصبرُ بداخلي انطفأت قناديلُه، لكنني لازلتُ لا أريدُ الموت هنا.

لا شيءَ يسترني لأصنعَ منه ثوبَ الصبر سوى دموعِ روحي الحيرى ودعاء أمي التعسة، بألا أفارقَ الدنيا قبلَ أنْ أحتضنَها!

أسمعُ صوتَه يقتربُ، أتلمسُ رائحتَه في كلِّ دقيقةٍ، الموتُ يحومُ حولي، لا أدري أيهما أسرع فتكاً بي، المرضُ أم السِّجنُ اللعينُ !

لا تجعلوني طارئ العبورِ على قلوبِكم، اذكروني، لعلّي أنجو يوماً، أو أهلك سريعاً، ويعلم اللهُ أنني تمسكتُ بحريتي لأخر أنفاسي، بيد أنَّ الحياةَ أفلتت يدي في منتصفِ الطريقِ!

وهنا سقط قلمُ صديقِنا، بعدما صمت قلبُه، وأُسدِلَ الستارُ حتى إشعارٍ آخرَ.

* * *

المشهد السادس عشر

"بفكر في اللي ناسيني٠٠ وبنسى اللي فاكرني
وبهرب من اللي شاريني٠٠ وأدور على اللي بايعني "

محمد عبد الوهاب

قالت:

ليتكَ تعلمُ كم أنا مخلصةٌ لكَ، أراكَ بهم جميعاً، أراكَ في صوت أبي الحاني يلقنني

"صباح الخير"، أراكَ في فنجان قهوتي الساخنة، أتلمسُ همساتِكَ في زقزقة عصافير الجارة، في عيون أخي كأنني أراكَ ونيران الغيرة تصطفقُ من عينيك.

هذا الصباحُ تلمَّست عطركَ في الهواء، خفق قلبي لوهلةٍ وبحثت عنك كثيراً، لكن لم تكن هنا.

أتذكر ذاك الرداء الأسود الذي أهديتكَ إياه، اليوم أيضاً رأيته، لكنكَ لم تكن من ترتديه.

نغمةُ هاتفك سمعتُها اليوم أيضاً، ذكرتني بلحظتنا الأولى، لكنك لم تكن صاحب الهاتف.

اليوم أنا أرتدي ثوبي الأزرق المُزيَّن بالفراشات والورود، الذي لطالما أخبرتني أنكَ تحبُّه.

العطر، الهاتف، الرداء، الثوب، كلها موجودة اليوم، كلُّ شيء يبدو مثالياً، لكنكَ لستَ هنا !

* * *

اليوم، ليس أفضلَ أيامي حظاً، تكرَّر المشهد ثانية، صوتُ الباعة، ضجيجُ عربات المترو، صياحُ الأطفال، همجيةُ الصبية، وتدافع الجميع، لم يزعجني كلُّ ذلك، العقبة لم تكنْ بالأكسجين الذي كاد يتلاشى، ولا في غرباء يثيرون الريبة، لم يكن في حشرجة الأصواتِ المنبعثة من كلِّ صوبٍ يتأففون، حينما أدرتُ وجهي، لم أركْ وانتهى الصباحُ !

❊ ❊ ❊

اليوم.. وبعد كثير رأيتكَ، تغيَّرت ملامحُكَ قليلا، لكنكَ لازلتَ جذاباً، أبعدت عيني عنكَ قدرَ المُستطاع، أخفقتُ في ذلك، كنتُ على وشك أن أرتمي بين ذراعيك، لعلكَ تشعر بوخزات قلبي حينما خذلتني، أو تمتزج دموعي بقهوتكَ الباردةِ فتشعر بمرارةِ ما أذقتني إياه، رمقتني بنظرةٍ لم أعلمْ أهي حنينٌ أم رضا، لعلها كانت الشعرةَ الأخيرة التي هتكها سيفُ جفائِك، وانتهى الصباحُ .

❊ ❊ ❊

اليوم... كان يومَ تخرجي، تواعدنا على الاحتفال سوياً، رفاقي جميعهم يحيطون بي، تلقيتُ التهنئة من الجميع، عدا أنتَ.

سيحضر هذا المساء أحدُهم للقاء والدي، بالمناسبة علمتُ بأنكَ تواعدُ إحداهن، سقطت بعض الدموع من عيني، لا أدري أكانت دموع خذلانكَ الأول، أم أنَّها دموع لأنكَ لازلتَ قادراً على الحبِّ أو حتى التظاهر به!

اليوم... أتممتُ عامي الثاني والعشرين، كان حفلُ زفافي الأسبوع الماضي، كان الجميعُ سعداء، وكنتُ الوحيدة التي تبكي غيابكَ، لكن ماذا كان سيفيدني حضوركَ إن لم تكنْ أنت مَنْ أتزوجه!

" فريدة " أتمَّت عامها الأول، أسميتُها كما اتفقنا مسبقاً، تبدو جميلة للغاية، بالمناسبة تمتلك عينين لها نفس اللون العسلي اللامع، إنها كعينيك تماماً، لكنكَ لستَ والدها.

يبدو أن اليوم، لم يكن الأفضل؛ لم يكن الحظ حليفَ الشاب الذي ترجَّل من المترو متأففاً من طول انتظار حبيبته، لم يكنْ الأفضل للحبيبة التي طاردتها أعين المارة لكونها في كاملِ أناقتها اليوم.

لم يكن أفضل ذكرى لذاك الذي تأخَّر عن العمل، وعنَّفه مديره، وليس للفتاة ذات أعين زرقاء، زرقتها رائعة لكن الدموع تغشاها، لم يكن الرجلُ ذا اللحيةِ الكثيفةِ والبذلةِ السوداء أوفر حظاً، ولا زوجته التي أرهقته بشكواها في الأتوبيس أذكاهن.

أدركت اليوم أن رحيلكَ ربما لم يكن أسوأ ما حدث، وانتهى الصباح.

* * *

المشهد السابع عشر

" أحنُّ إلى خبز أمي، وقهوة أمي ولمسة أمي
وتكبر في الطفولة يوماً على صدرِ يوم
وأعشقُ عمري لأنّي إذا مت، أخجلُ من دمعِ أمي.."

مرسيل خليفة

قال: "كانت أمي دائماً تُغريني بكلماتها حتى أطيعها، وأفعل ما توصيني به، اشربْ الحليب حتى تكبرَ، انهِ طعامك لتكبر، ادرس جيداً حتى تصبح طبيباً أو مهندساً حينما تكبر

الآن أنا هنا، كبرتُ بما يكفي، ولم أجدْ الأمر ممتعاً !

لم تخبرني أمي أن هناك أشياءَ كثيرة سيئة، ومؤلمة، مؤلمة للغاية.

أمي!

خطواتي عالقة، أريدُ أن أنسلخ من عباءة النضج هذه وأرتمي بين أحضانكِ، سأبكي كثيراً، أبكي وحسب.

أهمسُ لنفسي كثيراً أنني أقوى من كلِّ هذا، لكن ما إن يأتي الليل ويغيم ظلامه، حتى يغلف قلبي ألماً لا صوتَ له.

ظننتُ أنني هجرتُ أحزاني، وأن ذكرياتِ الماضي لازالت دفينة، لكن الآنَ كلَّ شيء يطاردني.

حتى أنتِ لم تعودِ هنا، لم يبقَ أحد، الليل يشتد ظلامُه على قلبي، ليتكِ هنا !

لكنتُ أخبرتكِ بكلِّ شيء، عن الخذلان والوعود الكاذبة، عن السعادة التي لا تكتمل، عن الوجود الطارئ والغياب غير المبرر، عن الرحيل السريع، عن كلِّ ما يؤلم، لكنتُ أخبرتكِ عن أحلامي التي فارقتني كرهاً أو طوعاً.

كنتُ سأخبركِ عن أولئك الذين عاثوا بقلبي فساداً، عن ندوب قلبي التي لا تلتئم، وعن أحاديثهم التي أصابت روحي بخدوش اليأس، بصدري كلماتٌ وذكريات تؤلمني لا أبوحُ بها، ولا أشد ألماً من حاجتي إلى ضمةٍ منكِ لم أنلها وفارقتني طول العمر.

أين أنتِ الآنَ؟ ليتني لم أشربْ الحليب، وليتكِ لم ترحلي!

المشهد الثامن عشر

اجبر بخاطري يا زمن وادِيني لمسة حنان"
وافردلي ضهري اللي اتقطم
رجعني زي زمان .. "

كايروكي

- زين! زين!

انتبه للطريق، توقفْ، توقفْ، استعملْ مكابحَ الدراجة!

- أبي... آآآآآه

- زين.. عزيزي هل تأذيتَ ؟!

- قدمي تؤلمني .

- لا بأسَ عزيزي، إنَّها كدمةٌ خفيفة، ما رأيكَ أن نذهبَ لعلاجها، ثم نتناول الآيس كريم !

- مرحى !!!

❊ ❊ ❊

كانت هناك عينٌ تشاهد هذا المشهد الذي يجمعُ بينَ الأبِ وابنه في حالةٍ من الود والعطف وكثيرٍ من مشاعرِ الحبِّ، هناك طرفٌ خفي يراقب كلَّ هذا، وكلما يرتدُّ إليه طرفُه تنغصه دمعاتٌ سرعانَ ما يحاول مواراتها.

الأب، والأم ودفء العائلة، كلها مفاهيمُ مبهمة لا تمثل في قاموسي سوى " أنَّها يمتلكها كلُّ الناس عدا أنا " ، في الحقيقة جميعهم يملكون كلَّ شيء، وأنا لا أملك.

بالمناسبة، من أنا ؟ من أين أتيت؟

سؤالٌ بات تفسيرُه يشبه أن تتعمق في أسرار الظواهر الميتافيزيقية، وفي النهاية تصل للعدم، لا أحدَ يعرفُ سوى أنني أقطنُ الشارع وضواحيه منذُ أشرق صباحُ يومي الأول.

تداخلت أقاويل الجميع واختلفت، البعض يراني أنني ذنبٌ، خطيئةٌ لامرأةٍ قلبُها عاتٍ، ورجل لا يشغله سوى إشباع غرائزه الجامحة، وقررا التخلُّصَ من آخر بصمةٍ في مسرح الجريمة، فأرسلوني إلى المجهول.

بينما يشفق البعضُ على طفولتي المُهدَرة، ويخبروني أنَّه لربما اختطفني أحدُهم من أهلي، لا يهم من أين أنا، فالشارعُ هو آخر حدود عالمي، لا يحقُّ الاعتراض.

الجميع يحصل على أبٍ وأنا حصلت على " إبراهيم الأعرج" هكذا يلقبُه الناس في المنطقة، رجلٌ غليظ الصوت، سيءُ الطباع، شحيحٌ ويكسب قوت يومه من دم الأطفال، هو يأوي أطفالَ الشارع في هذه المنطقةِ مقابل أن يجنوا مالا وفيراً بالتسولِ أو أية وسيلة أخرى، لا يهمه الوسيلة، فهو ليس برجل أخلاق إطلاقاً.

الأطفالُ في مثل سني، يستيقظون كلَّ يوم بقُبلةٍ حانيةٍ من آبائهم، أما أنا فظللت أستيقظ طيلةَ العشر سنوات التي حييتها على صوتِ صراخ الأطفال حينما يدلف إلينا " الأعرج " وبيده إناء المياه الباردة ليقذفه علينا في حالِ تأخرنا عن ميعادِ العمل الرسمي.

أتحبُّ الفاكهة أم العصير الطازج في الإفطار؟

لا يهمُّ، فأنا لا يهتمُّ أحدٌ بما سآكله، قد أتضور جوعاً طيلة اليوم، وبالتأكيد لن يشفقَ الأعرج على حالي في المساء، إننا نعيش على الفتات.

أأخبركَ بشيء، نكاد هنا لا نعرف أسماء الأطعمة ناهيك عن مذاقِها!

الجميعُ يحبُّ الأعياد والمناسبات السعيدة، أنا أمقتها، إننا مجبرون على الخروج لرؤية كلِّ هذه الوجوه المبتسمة، كل الأطفال السعيدة، كل الأناس المستبشرين، نخرجُ للمشاهدة، كأنَّهم في عالمٍ منفصل عنا، يحجزنا عنهم إطارٌ زجاجي، يمنعُ السعادة أن تزورنا حينه.

نتأهبُ لمزيد من التسولِ والسرقةِ والتعرُّضِ للإهانة والضرب، وربما يصل بنا الحال متورطين مع شرطي أو ما شابه جراءَ اكتشاف فعلتنا، نخرجُ في هذه المناسبات للشارع لكسب أضعاف إيرادنا اليومي المعتاد، وإلا تعرضنا للخطر الأكبر، وهو أن يطردنا " الأعرج" من جحيم جنته!

في مساء ليلةِ عيد، كانت الأجواء صعبة وأكثر تأميناً للغاية هذه المرة، أُعتُقِلَ الأعرج بتهمة محاولة السرقة، وعندما قاومته السيدة التي كان يُخطط لسرقتها قام بطعنها، رحل الأعرج ..

عرينُ الأعرج لم يكن جنةً بالنسبة لنا، لكنه جحيماً يرحمنا من عبث متشردي الليل، تفرَّق أطفالُ المأوى كلٌّ في طريقه ليشقَ حياته على نهج الأعرج وحاشيته، وكنت أنا ممن لم يجدوا سوى الشارع الكبير موطناً لهم،

لم يتغير حالي كثيراً، سوى المطر الذي يغطي أطرافي في ليالي الشتاء الباردة، والمرض الذي ينهشُ أطرافي لأنَّه لا يُعالج .

تمرُّ السنون، ولا أزال في الشارع، لكن بنياني اشتدَّ، وأصبح لي صيتٌ واسع بين الناس في المنطقة التي أقطنها، عادة لا يحتويني مكانٌ بعينه، لكن أفضل أن أتواجد حيث توجد " هي ".

" أم عيون ملونة"، هكذا يلقبونها سكان المنطقة وزملاء المهنة، " نور " كانت جميلة للغاية رغم شحوب وجهِها وإرهاق عينيها، وثيابها الرثَّة، إلا أنها كانت لا تزال جميلة.

قابلتها منذُ رحيلي عن وكر الأعرج، كانت طفلةً تائهةً في حواري المنطقة، يبدو أن إحدى السيدات اختطفتها من ذويها للتسول بها لكنها هربتْ لسببٍ أو لآخر، كانت نور تصغرني ببضع سنوات، اعتبرتُها مسئوليتي منذُ يومها الأول في الشارع.

لن أقول اعتبرتها أختي الصغرى، لأنني لا أدرك معنى أن تمتلك أخاً أو أختاً، العلاقات الاجتماعية والمسميات هذه لا جوهرَ لها عندي، فقط قررتُ أنني سأتكفَّلُ بها.

طفلٌ يتبنى طفلةً في أحد شوارع المعمورة مجهول الهوية، ولا يملكان ما يسد رمقهما، يا للعبث !

تركتُ التسول ما إن اشتدَّ عودي، وبدأت بالعمل كصبي في بعض ورش الخشب، والسيارات وغيرها، وآخرهم كان مقهى " الحاج صالح " الرجل الذي أحسن معاملتي كثيراً.

والطبيعي أنه خلال كل هذه الأطوار ظهر لي العديد من الأعداء، وتجلَّى أذاهم كثيراً في حياتي، كان أكبر أذى لَحِقَ بي في تلك الليلة المنبوذة، كنتُ أترددُ كعادتي على "نور" والرفاق الصغار في مأوى قريبٍ من المقهى، حينها بادرني أحدُ الصغار مذعوراً ليخبرني بأنَّ أحدَ متشردي الليل الذين يقطنون الشارع ضرب "نور" ورحل، أثار الأمر حفيظتي، وأقسمت أن أجعله يندم على فعلته!

هرولت لها:

- نور نور! ماذا أصابك! ما هذا! مااا.... ماذاا حدث!!!

لم تنطقْ ببنت شفة، لم ترفعْ حتى وجهها لتراني مثلما اعتادت، صامتةٌ ودموعُها تنسكب على وجنتيها، وخدوشٌ تتناثر على وجهها وكتفها الذي تعرَّى، كأنَّها فريسةٌ ضالة هاجمها وحشٌ كاسر، كلَّ هذا كان مقدماتٍ للمأساة الحقيقية، حينما وقعت عيناي على بقع الدم المُتفرقة على ثيابها!

كانت المرة الأولى التي أراني صغيراً ضعيفاً في أعين نفسي، وأرى العالم قبيحاً مجرداً من كلِّ معالم الرحمة والأمان، رأيت الكونَ دون هيبته، نظراتها الصامتة تقتلني، كأنها تلومني على غيابي، كأنَّها تقول " أين كنتَ

حينما حدثَ كلُّ هذا، لِمَ لم تنقذني"

أتبكي حظها أنَّها استغاثتْ ولم تجد مغيثاً؟ أتلوم السيدة التي سلبتها أمان أهلها؟ أم تلوم عائلتها التي لم تجدها منذ سنوات؟ أم تلوم العالم على ضراوته؟!

في هذه اللحظة تجرَّدتُ من كلِّ المشاعر، سالت مدامعي، تركتُها وتوجهت بعيني للسماء صارخاً:

- الله، ماذا يحدث !! لِمَ كل هذا يحدث معي!! مَنْ أنا ومن أين أتيت، هل أتيتُ لهذا العالم حتى أعيش في هذا الجحيم وحسب!

الله .. ما ذنبُ هذه الطفلة في أن تظلَّ روحُها تحتضر طيلة حياتها؟ ما ذنبُها أن تُنتهك حرمتُها فقط لأن ليس لديها من يحميها، كانت جميعها أسئلة لا يليق بها إلا العويل، كسبيل للعزاء !

مرتْ السنوات سريعاً، حدثت بها متغيراتٌ كثيرة، كان أصعبها فِراق الحاج صالح، لم يكن له وريثاً، فقد كان رجلا مغترباً وحيداً بعد وفاة زوجته، فأصبحتُ المسئولُ عن منزله ومقهاه، الآن لدي طفلتان وصبي، وزوجتي... نور، لم يكنْ قرار زواجي بها تصحيحاً لخطأ الحياة، أو لعلَّه قراري الصحيحُ الوحيدُ حتى اليوم.

مضت السنواتُ لكن كلَّ الذكريات تلوح بأفقي، لازالت ذاكرتي معبَّقةٌ بكواليسِ حياتي عند الأعرج، نظراتُ الشفقة حيناً والاستنكار أحياناً من

المارة، وصمتُ الخزي التي رافقتني أمداً لأنَّه لا أصل لي ، تقصيري في حماية "نور" التي حُرمتْ قسراً من أحضان عائلتها، وزُجَّ بها في مستنقع القبح هذا كله.

كلُّ تلك الذكريات تمرُّ بذهني حينما أرى طفلًا في الشارع أرى نفسي من خلالِه، أطفالٌ لا ذنبَ لهم في شيء سوى أنَّهم في هذه الحياة يُروَّضون على طباعها وضراوتها، صحيحٌ أصبحت ناضجاً الآن، لكن لازالت المشاهدُ الحانية بينَ الأب وابنه تراودني، وتشعرني بحسرةٍ لا تُستساغ.

قد نتخطى المواقف ويمضي الزمنُ، لكن المشاهدَ تظلُّ عالقةً في أذهاننا.

* * *

المشهد التاسع عشر

" قالولي هان الود عليه
ونسيك وفات قلبك وحداني
رديت وقلت بتشمتوا ليه
هو افتكرني عشان ينساني ؟! "

فايزة أحمد

تنهَّدتْ، بكتْ، ثم قالتْ:

أليس رجلًا كفاية ليسطر نهاية القصة، أن يمنحني وداعاً، يجعلني أصدق أنَّه أفلت يدي، أليس عدلًا أن يحصل على معاناة كالتي أذاقني مرارتها؟!

❊ ❊ ❊

صديقتي.. لأنَّه رجل، هذا سببٌ كافٍ حتى لا يُنهي الأمر، الرجالُ لا يغلقون الأبوابَ خلفهم أبداً، يتركونها مواربة.

لن يخبرك أبداً أنه لا يريدكِ، فقط سيرحل، وربما يعود يوماً، ربما حينها يخبركِ بكلِّ شيء حدث معه منذُ لحظة رحيله، لكنه في نهاية الكلامِ لن يُصرّح بأسباب الرحيل، سيظلُّ منتظراً أمام نافذة قلبكِ، وإن كان برفقةِ غيركِ.

هم يأكلون مع كلِّ ذئبٍ، ويبكون مع كلِّ راعٍ.

❊ ❊ ❊

المشهد العشرون

" بتسأليني بحبك ليه... سؤال غريب ما أجاوبش عليه
أحب تيهك ودلالك... وأبكي من كتر غرامك.... "

محمد عبد المطلب

"لمَ أحببتني، ولمَ أنا من بين الأخريات؟"

لم تتمْ جملتها حتى أحسَّت في نظراته بعتبٍ من سؤالها المندفع دونَ حسابٍ، وهي التي اعتادت حسابَ كلِّ شيء.. نظرتْ بعيداً بينما هو ابتسم ابتسامةً حانيةً ناظراً إليها يتمعَّنُ ملامحها الهائمة، وقال: أخبريني أنتِ، لمَ أنا وقد سعى لوصالكِ كُثر فتمنَّعتي؟!..

حينها أبت إلا أن تخرج الطفلة وروحها البريئة في حديثها، وأخبرته للمرةِ الأولى ما تُكنه ويعلمه؛ بيد أنَّه آثرَ أن تلفظه فيتحسس نغمَ كلماتها وإحساسها العذب، أجابت بينما هي تتمالكُ ما بدر من استحيائها:

وحدكَ كنتَ الثابت بينما أتي الجميعُ ورحل، كنتَ المشع حينما انطفأ وهجُ الجميع، كنتَ الأرض التي صمدتُ عليها وقتما وقفتُ وحيدةً في مهب الريح، أنت الحبيبُ الرقيق حينما يضيق العالمُ ويقسو، ملاذي الحاني حين تخذلني الأيامُ، المرفأ الذي ترسو عليه سعادتي، وشقائي، همومي وأحلامي. الركنُ الأمين الذي آوي إليه فتزول عني آلامُ الدنيا ووعثاءُ شرودي.

أنتَ الذي جئتَ كشعاعِ أملٍ في ليلة لم يظهر لقمرها ضياءُ، ملبدةٌ بغمامِ التيه والآلام، محاولاتٌ عبثية لتخطيكَ فما كان منّي سوى أن أعلنت أنني وبكلِّ فخرٍ قد تُيّمتُ بكَ، فلا حياةَ سبقتك، ولا حياةَ بدونك، فسلامٌ عليك، ولا سلامَ في حياة أنتَ لستَ بها..

كنتَ أمانًا في عالمٍ لا سلامَ به، وأملًا في دنيا أطاحت بها الانتكاساتُ، أولُ كلِّ شيء وختامه؛ فأنتَ أولُ الحُلم، ولأنَّ ختامَه مسكٌ؛ كنتَ أنتَ..

أما زلتَ تسألُ لماذا أنتَ ؟!

المشهد الحادي والعشرون

"وماكنتش أعرف قبل النهاردة
إن العيون دي تعرف تخون بالشكل دا
ولا كنت أصدق قبل النهاردة
إن الحنان يقدر يكون بالشكل دا "

عبد الحليم حافظ

مضت الأيامُ، ولازلتُ أنصت لكلِّ تلك الأصوات الداخلية التي تفيضُ بمكنونات صدور البعض، بعضُهم تمنَّع عن الحديث والبوح، والبعضُ بمجرد سؤالهم عمَّا يؤرقهم لم يتوقفوا عن الحديث حتى جفَّ لسانُهم وسالت مدامعُهم، فالمرءُ عادةً ما يُفضِّلُ البوح للغرباء.

الغريب الذي تلتقيه دونَ خطةٍ مسبقة، فقط تراه لمرة واحدة دونَ ضمانٍ لصدفة أخرى، تسعفك حينها كلماتُك لتخرج كلَّ ما يكدرك، تظل تتحدث وتتحدث حتى وإن لم يملك ذلك الغريب حلًا، يكفي أنه لن يرميك بأحكام مُسبقة، فقط سينصت.

هكذا كان حالُ البعض ممَنْ ترددوا على عيادتي المتواضعة، وكان ضمنهم تلك التي استوقفني سؤالُها، حينما قالت:

لماذا يعترضون طريقنا، ويقحموننا في حياتهم المُخرَّبة، نحسن النيةَ ونحاول ترميم كسورهم، وما نجني سوى الأشواكِ، كيف لي أن أخوض حرباً لأجل مَنْ لمْ يتكلف عناءً ولو معركةً واحدةً لأجلي ؟!

بعد فترةٍ من التعلقِ وخيبة الأمل، تدرك كم كنتَ ساذجاً عندما تلهثُ إلى صندوق رسائلك الواردة، لعله هو المرسل، لكنه لا يكون.

تتفحص عيونَ المارة في الطريق لعل صدفةً تجمعكما ، لكنها لا تكون.

أن تثق بأحدهم بعدما كنتَ لا تثق بأصابع يديك، ثم يخذلك!

أحببتُه، ولامني الجميعُ على حبِّي له، دائماً ما رددوا " الحبُّ أعمى"، لكنني ظللت أخبرهم بأنَّهم لو رأوه بعيني لاختلف رأيُهم، حتى عيوبه أنا أحببتُها.

كنت على دراية بماضيه، كثيراً ما تسلل شبحُ ذكرياته القديمة لحياتنا، لكنني كنتُ أظل أخبر نفسي بأنه سيتجاوز الأمر، في الحقيقة هو لم يتجاوز، وأصبح ماضيه يطارد حاضري، ويدفع المستقبلَ نحوَ مزيدٍ من الجراح.

ما ذنبُ قلبي أنَّه أحبَّ قلباً معلقاً بسراب واهٍ؟!

ظللت أخبر نفسي بأنَّ الأمر سيختلفُ بعد الزواج، ربما سيبادلني الحبَّ بالقدر ذاته، حقيقة ما أربكني كان أنَّه معترفٌ دائماً بحبه لي، لكن ماضيه لازال قابعاً في عقله، يتذكر كلَّ لحظاته، وربما ينسى ذكرانا القليلة.

يظلُّ يذكرني بجرحه الغائر كأنني المذنبة، هي جرحته وهو يلومني أنا!

وأنا التي حاولتُ باستماتةٍ أن أمسح عن فؤاده غبار خذلانها .

كلماتك المعسولة التي تظل ترددها حتى حفظتها عن ظهر قلب، لم تعد تُجدي، كنت فقط أريد أن أري في عينيك ما تلفظه شفتاكَ، كنتُ أريد أن أحبَّ من يراني المرأة الوحيدة في عينيه، والبقية مشاريعُ نساء غير مكتملة.

كنت أريد من يخبرني أنه باقٍ علىَّ ما بقيت، لكنني لم أرَ أياً من هذا في نظراتكَ، رأيت ماضيكَ المعتم والحاضر الذي تغزوه الأخريات.

أخبرتني جدتي يومًا، أن من كثرت النساء حوله لا خيرَ فيه ولا راحةً معه ،جادلوني بك أقسمت لهم أنك مختلف؛ فخذلتني !

تمر الأيام وأدَّعي أن الكسورَ ماثلت للشفاء، والحقيقةُ أنَّها لازالت بداخلي لكنني اعتدتها.

كنتُ في أوج استعدادي لخوض ألف حربٍ لأجل قلبكَ، لكن يبدو كما يقولون: "في حربِ الحبِّ مهزومون ولو انتصرنا ".

كان حبُّكَ أكبرَ صفعةٍ تلقاها قلبي؛ صفعةٌ تركت نُدباً لم يجترئ أحدٌ على مداواته.

لم يكن عليك أن تقتحمَ حياتي، وتزرع فيها ألغامَ العذاب، ثم تختفي، لم يكن عليك أن تدفعني لطريقِ قلبِكَ، ثم تترك خطواتي على شفا الهاوية.

❊ ❊ ❊

خارتْ قواها عند هذه اللحظةِ، فأمسكتُ أنا أطراف الحديث، أما بعد... لا تسمح لأحدٍ أن يعاملك بمشاعرَ مؤقتةٍ ترتبطُ بمزاجه، يقترب منك حين يحتاجك، ويغيب عنك حين تحتاجُ إليه، لا تصلحُ ما أفسده غيرك وتترك قلبك خرابًا،فمن وعدونا بالجنةِ على الأرض لم يعطونا سوى جهنم.

المشاعرُ الصادقةُ ليست أثواباً نرتديها متى أردنا، ونُلقيها كما نشاء، للنفس كرامة تعلو كلَّ المشاعر، لا تعاملْ أحداً على أنَّه قشة نجاتك، انجُ بنفسك.

البعضُ عندما نخبرهم بحبنا ونعاملهم كأنَّهم آخر ما تبقى لنا، يزداد دلالهم، وكأنَّهم ملكوا لجامَ قلوبنا، تغافلنا كثيراً فظنوا أننا مغفلون.

عندما تخطيء في حقي، وأتجرَّعُ الصبرَ لأتجاوز عن ذلتك .. هذا لأني أحبُّكَ، فحذارِ أن تستهينَ بقلبي وتخذله، فوالذي خلق الفؤادَ وأسكنك فيه، قادرٌ على محوكَ من أيامي حتى أقفَ عند اسمك ولا أتذكرك !

❊ ❊ ❊

المشهد الثاني والعشرون

كان بدي غير العالم مش عارف كيف العالم غيرني.. "
كان بدي أحمل السما وهلأ أنجأ حامل نفسي.. "

مشروع ليلى

- ألو؟ مرحباً رامي؟! سنذهب في جولة لشوارع القاهرة اليوم، ما رأيُكَ؟
- من سيذهب؟
- مازن سيحضرُ سيارته، وسيحضر معه صديقاته .
- مازن وصديقاته، أتقصد أننا سنخرج برفقة فتياتٍ ؟
- هههه ماذا بك أتخجلُ من الفتيات، لم تعد طفلًا يا رجل؟
- اممم لا لا أريدُ الخروج، ربما الأسبوع القادم!
- لا بأسَ لن يحدث شيء لا تقلق .
- أكرم.. أنتَ تعرفني أنا لا أثقُ بمثل هذه التجمعات وخصوصاً رفقة مازن!
- بالله يا رجل لن يحدث شيء سنخرج، نتنزه قليلًا ثم نعود، أم أنك ستظل ملازماً للبيت مثل الفتيات، حياتُكَ بائسةٌ هكذا يا صديقي !

فكر رامي قليلا في حزنه على حبيبته التي تهجره، وفي حياته الرتيبة التي يريدُ تغييرَها.

ثم تنهَّدَ

-اممم حسناً موافق اتفقنا يا رفيق، سنتقابلُ في السابعة !

التقى الرفاق، ولم يكن الوضع مريحاً لرامي خصوصاً في وجود الفتيات، هو بطبيعته الذكورية وسيكولوجية الرجل يميلُ بالطبع للجنس الآخر، ويشعرُ بالإطراء حال تواجدهم حوله، لكن بطبيعة تربيته لم يعتدْ على مثل هذا الأمر.

بدأ الأصدقاء في التدخين، علا دخانُ السجائر التي كانت ذات رائحةٍ غريبةٍ ومنفرة في الوقت ذاته، رفض رامي عرض صديقه بإحدى لفافات

التبغ، فأصروا عليه بـ " نفس " واحد، وفي دائرةٍ من السخرية والإصرار، انصاع لطلبهم، ودخن السيجار، عقبها صعوبةٌ في التنفس، لكنه لم يجد الأمرَ سيئاً، ربما أحسَّ بالانتصار لأنَّه قبل التحدي الذي فرضه أصدقاؤه.

في اليوم التالي أخبره أكرم بأنَّ الرِفاقَ سيذهبون لبيت مازن، هذه المرة لم يكن التحدي مجرد لفافة تبغ، بل تطوَّر الأمرُ ليجد رامي نفسه تحت وطأة عقاقيرَ مخدرة ولفائف متنوعة من الممنوعات، يتعاطى ويتعاطى ثم لا يتوقفُ !

الأمر لم يتوقفْ هنا، بلغت الأمورُ ذروتها حينما دخل والده ذات ليلةٍ، وكان الباب لا يزال مواراباً، دائما ما يقولون أن هناك طرفَ خيطٍ ينتظر من يجذبه حتى يتضح الأمر من خفائه للعلن، كان رامي مستغرقاً في النوم أمامَ شاشة "اللاب توب " والذي صعق الوالد ما وقعت عليه عيناه عندما لمح الشاشة وما تحويه من مشاهد غير أخلاقية

الأفلام الإباحية أو ما يسميها البعض بأفلام porn

حاول الوالدُ إفاقة رامي حتى يعنِّفه على فعلته، لكن جسده كان متجمداً بفعل المخدر، كان فاقداً لوعيه.

في الصباح، هاتفه صديقه، وأخبره أنَّهم بحاجة إلى مالٍ أكثر حتى يستطيعوا شراء جرعة أكبرَ من العقار حيث الجرعات الصغيرة لم تعدْ تُجدي، توقف ذهنُه لدقائقَ ثم سرعانَ ما تسلل لغرفة والديه ليسرقَ بعض النقود، فهو لن يتوقف؛ هو لا يستطيع أن يتوقف ويمتنع؛ المخدرُ أصبح يسري بعروقه مثل السم، هو سم حلو، يدرك أنه سيقتله لكن فقدان لذته بعد أن اعتاد عليه يفقده أعصابه.

خرج والده عن سكونه هذه المرة، اعتبر في ذاك اليوم أنَّه لم ينجب ولداً، قرر أن ابنه لن يمضِ في هذا البيت لحظةً أخرى، في إصرارٍ ونحيبٍ من الأم، لم يبدِ لها الأب اهتماماً، وآثر أن ينفذ حكمه على ابنه العاق.

أصبح شريداً دونَ ملاذٍ ولا حتى أصدقاء، أصدقاءُ السوء والعقاقير كانوا دائماً يرافقونه لأنه يُعينهم على شراء ذاك السم الزعاف، باتوا في غنى عنه؛ فهو لا يملكُ حق متعته.

لا بيتَ، لا أهلَ، لا أصدقاءَ، لا حبيبةَ، كانت تنوي الرجوع بعد هجرها له، لكن أفعاله منعتها منه، يتذكر كلماتها الأخيرة له، أنها لن تأتمنه على روحها، ولا يصلحُ أن يكون أباً لأطفالها، في ذاك الوقت كان مخدراً لم يعِ وقعَ كلماتها، إلا أنه الآن يدركها!

هو يتذكر وفاةَ والدته، مريضة القلب، لم تتحملْ رؤية وليدها- وإن كان عاقا- يفترش الشارع، ماتتْ بحسرتها على ما آلت إليه الأمور.

" لم يتركني والدي ألمس أمي أو أقبلُ وجهها، لم يعطني حقَ وداعها للمرة الأخيرة، لا ألومه، لكن لكم يعزُّ عليَّ أن أراها في فراش الموت ولا أهرول لأحضانِها"!

* * *

-صديقي.... أتعلمُ أنَّ مجرد سيجارٍ أو مخدر تافهٍ نظنه شيئاً حقيراً يمكنه أن يقتلنا ونظل أحياء، أن نخسر كلَّ الأشياء الجميلة في مقابل لذةٍ وهمية، لن تكتشف خسارتك سوى بعد انقشاع غمامة دخانها، حينها فقط يمكنك أن تبكي حياتك أمداً.

تبكي مستقبلك الذي محاه أحدُهم حينما عرض عليك التدخين والتعاطي، أم تبكي الحبيبة التي فقدت الأمان وتعتبرك ضعيفاً يهزمك عقارُ أو سيجارٌ فكيف لها أن تأمن بجوارِكَ، كيف لك أن تحميها، وأنتَ تلهث خلفَ دخان أو إبرة مخدر، ولعلك تبكي الأهل، الذين لطالما اعتبروكَ سنداً للعائلة، فكنتَ الحائط المائل الذي هدم بنيان سعادتهم!

لا يغرنك الرفقة والتباهي، الرجولةُ لم تكن يوماً بعدد اللفافات التي تتعاطاها، وتتفاخر بقدراتك أمامَ الجميع، إنك تمسكها بين أصابعك ، لكن حياتك كلها رهن دخانها.

توقف!!!

إنَّها لعبةٌ خاسرة، إما تقتلك، أو تفقدك عزيزاً، فتتمنى الموتَ حتى لا تشعر بوخزاتِ الندمِ والحسرة.

وعن تلك الأفلام التي لا تحتوي إلا على مشاهدَ مشوهةٍ، تثير غريزتك، تجعلها تتحكم بك، في اللحظات هذه أشفقْ على نفسك وانظرْ للمرآة، لن تجد سوى حيوانٍ جامح لا يبالي سوى بإشباع رغبته وغريزته، وإرضاء شهوته.

تشعر عند المشاهدة بلذةٍ وإثارةٍ وتظن أنه لا خطبَ في الموضوع وانتهى التأثير حال انتهاء المشهد، لا لم ينتهِ الأمر، إن تداعيات المشاهدة ستجعلك تقعُ في الخطأ بالتأكيد، ستجعلك منصاعاً لرغبتك، ناهيك عن المخاطر الصحية التي قد تتعرض لها إثر جموح شهوتك.

كلها لذَّاتٌ مؤقتة، ولو كان بها نسبة منفعة ولو ١% لما كان الله حرمها، لا يغرنكَ قوتكَ وسيطرتكَ على الأمور، النفس أمَّارةٌ بالسوء يا صديقي" والصاحب ساحب"، انجُ بنفسكَ !

* * *

المشهد الثالث والعشرون

" هو إنتِ لسة بتسألي إنتِ بالنسبالي إيه؟!
لا يا حبيبتي إطمني الجواب عندي تلاقيه... "

هاني شاكر

- أحبُّكِ .

- إلى متى ستفعل ؟!

- إلى الأبد .

- لا بل إلى متى ستظلُّ تحبني كما تفعل الآنَ، إلى متى ستظلُّ برفقتي، تتحملني بأسوأ حالاتي، تحتوي إحباطي وتُرمم ضعفي؟!

إلى متى ستبتسمُ حينما تراني؟ هل ستظلُّ تحادثني لساعاتٍ أم أنَّك ستتجنب كلامي وتملّ جلساتي؟!

إلى متى ستظلّ تعتبرني جميلة؟ هل ستظل مكتفياً بي أم أنكَ ستميل إلى إحداهن؟ هل ستظل مخلصاً لي حتى في غيابي أم أنكَ ستنهج نهجَ الرجال وتراود أخريات ؟!!

هل ستجعلني ضمنَ أولوياتكَ دوماً ؟! أم أنني سأغدو من الكماليات في حياتك؟

سيستمر وهجُ حبكِ لي وكلماتك الرنَّانة أم أن هذا كلَّه شغفُ البدايات وسينتهي؟!

أنا لا يليق بي الأبد الممل الرتيب.

كلهم رائعون في البداية، كن مختلفاً وامنحني حباً لا يموت ! أتستطيع؟!

* * *

المشهد الرابع والعشرون

أمانة ما تسهرني يا بُكرة٠٠ أمانة ما تجرحني"
أمانة ما تحيرني يا بُكرة.. أمانة لتفرحني"

شريفة فاضل

قالت: الجميعُ يرى أنَّه الوقت المناسب لزواجي، لكنني خائفة!

لست قلقة كثيراً بشأن حسابه المصرفي، ولا بشأن نوع الهدايا التي سيهديني إياها، لكني أخشى حبيباً لا يحبني.

لست خائفة من ألم الحمل وعناء تربية الأطفال، لكنِّي أخاف أكثر ألمَ الخيانة.

لا أخشى أن نكون مختلفين، لكنني أخاف ألا يحبَّ تفكيري وعمقي وتأملاتي، وجنوني، أخاف حبيباً يهتم بما سأعده للعشاء، أكثر من " كيف أشعر"

خائفةٌ من حبيبٍ لا يجذبه مذاقُ القهوة ويستنكر الفيروزيات، وربما أخشى أكثرَ ألا يكون محباً للورود!

أخشى من حبيبٍ يهتم بأبرز إطلالات المشاهير والفنانات الأكثر إثارة، ولا يهتم بمعرفة أعمق كتب صاحب لقب " العرَّاب " .

خائفة من حبيبٍ يسخرُ من دموعي على موتِ الجندي المجهول الذي لولاه ما نجا البطلان في فيلمٍ ربما لن أتذكرَ اسمه بعد شهرين من مشاهدته، لكنني لا أنسى المشهد قط!

أخاف حبيباً لا يعرف المتنبي، أو لم يقرأ ولو جملةً واحدة لجيفارا، أو لا يعلمُ شيئاً عن تاريخ غسان كنفاني.

لا أخشى الزواج والعلاقات العاطفية، لكنني أخشى حبيباً لا يراعي تقلباتي المزاجية، أخشى حبيباً يتسلل لقلبه الملل من تفاصيلي، أخشى حبيباً تُهرني بدايتُه وتصعقني النهاية.

لا أخشى الحبَّ، لكنِّي خائفةٌ من حبيبٍ تقليدي.

المشهد الخامس والعشرون

" أنا لن أعود إليك مهما استرحمت دقات قلبي
أنت الذي بدأ الملامة والصدود وخان حبي
فإذا دعوت اليوم قلبي للتصافي لن يلبي "

أم كلثوم

في إحدى زياراتها لعيادتي، صمتتْ قليلًا ثم كسرت حاجز الهدوء، وانطلقت بسرد قصتها: "يا دكتور... منحته كلَّ شيء، زرعت حبَّه في قلبي، ولم أجنِ شيئاً، هناك غيره لكنني لا أرى سواه!

وجدتني تلقائياً أجيبها بقصة مشابهة:

- أتعلمين عباراتك ذكرتني بمقولة لإحداهن: "لقد أحبَّني البيضُ والسودُ والمثليون واليهود، عدا الرجلِ الذي أحببتُه ".

أتدرين أن بهذه الكلمات اختتمتْ الأميرة ديانا قصتها الحزينة، في يومياتها التي لم تظهر سوى بعد موتها، كثيراتٌ أردن أن يكن في نصف حظ ديانا أو جمالها، لكنهن لم يعرفن أبداً أنهن يتمنين الحظ العثر ليس إلا.

لم يظهر سوادُ أيامها للعامة سوى بعد رحيلها، هي التي تزوجت من الأمير تشارلز، لتصيرَ بعدها أسيرة أحزان لا يمكنها البوح بها، أحبَّتُه كما لم تحبْ امرأة، وكالعادة نسيها كما ينسى الرجال.

كانت ديانا سجينة أفكارها ومشاعرها، برغم كونها أميرة إلا أن حدود تعاملها مع الأمير وأسرته الملكية لم يتعدَ دور الخادمة المنبوذة، وطوع رغباته وشهواته، وينتهي الدور هنا.

تعجبنا قصصُ الأميرات في ديزني، الفتيات في الصغر تتمنى لو رُزقن بمثل هذه القصص الوردية، ماذا لو ؟

ماذا لو اقتحم الأميرُ حصني المنيع، أميرٌ مجهول ما إن تتلاقى الأعين، حتى نهيم عشقاً ولا نفترقُ للأبد، لينتهي بنا الحال في مشهدٍ رومانسي ودرامي الطابع، وسط فرحةٍ عارمةٍ وحفل كبير، والنهاية تُسطر، ليُسدَلُ الستار.

لكن في الواقع الستار لا يُسدَلُ هكذا، النهاية لا تأتي كما نتوقعها دوماً، لكانت ديانا الأسعد حينها، ولربما الواقع ليس سيئاً بقدر ما نظن.

إننا فقط عشنا الأوهامَ لفترة طويلة، وها نحن نجني حصاد السراب، الحبُّ لا يأتي من لحظة، لا نظرةً أولى ولا ثانية، لا دقات قلب ثلاث، إنها خرافات تداولتها الأجيالُ، المشاعر التي تسير دونما رادعٍ، وعكس التيار، ستُهلك أصحابها، الحبُّ نتاج المودة والرحمة، لم يكن يوماً عنصراً معزولا أو عازلا، وإن كان لكان خاملا!.

الكرامة لا تُجزَّأ، فإن هانت فذاك لم يكن حباً، إننا لا ننسى الأحبَّة، لكنهم يحفرون ثقوباً في قلوبنا، إلى أن يصبح القلب فجوةً ثم هوة، يسقط بها ولا يدري القلب بأيِّ ذنبٍ هلك..

ديانا لم تعترض يوماً على الأذى النفسي الذي سببه لها تشارلز وعائلته، رغم أعمالها النبيلة إلا أن أحلامها تطايرت كالرماد في سبيل الحفاظِ على من لم يتكلف عناءً فهم ما أرادته، تشارلز عَلم بحبها، فأيقن أنَّها باقية رغم كلِّ تصرفاته التي تدعوها أن تنكص وتنتكس.

ديانا أحبَّت وكذا تشارلز، إلا أنه لم يلمح التعاسة في عيونها التي انطفأ وهجُها، ولا روح السبعينية التي تلبستها في ريعان شبابها، هو فقط لاحظ ما أراده، جمالها، وسلطته عليها.

- لكن يا دكتور! كيف لمحبٍّ أن يُسبب كلَّ هذا الألم لمن أحبه، ويظل موقناً أنه على صواب؟!

إننا ننجرف خلف التيار دونما معرفة عقباه، نلقي بأنفسنا في الهاوية بكلِّ أريحية، نسميها تضحية لأجل الحبِّ فقط لأننا نخشى الفقدَ بعد

التعود، وهم يقومون بدورهم وحسب، يجعلون أنفسهم ملائكةً معصومةً من الخطأ، ومن يعارض سلطتهم يعاقبونه بالهجران، وحينها يختلقون ألفَ مبررٍ ومبرر لتقتنع أنك أنتَ المذنب، وشرير الرواية، مثل هؤلاء يا صديقتي لا يصلحون للحبِّ، بل إن التضحية في سبيل حبِّهم هلاك دونَ مقابل، ويستمر الألم ..

* * *

المشهد السادس والعشرون

ليه خلتني أحبك٠٠ لا تلومني ولا أعاتبك"
فين تهرب من ذنبك
رُوح منك لله "

ليلى مراد

قالت:

أظنني ارتكبتُ إثماً باسم الحبِّ، أزهقت روحي، خنتُ أمانة السماء، ولم أتعظْ من جرائم القتل التي تُرتكب باسم ذاك السراب المنعوت بالحبِّ، لم أضعْ في الحُسبان حُرمة القلوب التي تُنتهك بافتراء الهوى!

- وأما عن عذرية القلوب التي تُسلب بوقع العشقِ المزعوم؛ إنه الإيمانُ الذي يقود للإلحاد؛ فهذى أرواحٌ وليدة لحظة؛ لحظة التقاء أعين، وتعانق قلبين، لحظةُ اشتياقٍ رغم القرب،لحظةٌ تمرُّ بينَ غمضة طرف وأخرى تُعادل سنواتِ دهرٍ طوال، تولد مشاعرُ مرتبكة من جوف قلب يخفق ويضطرب،الأمر برمته لا يصبح سوى صدفة مباغتة.

ماذا ؟! وهل يأتي الحبُّ فجأةً ؟!

-عزيزتي٠٠٠الحبُّ في حد ذاته مفاجأة، لا أنا ولا أنتِ نعلم كيف ومتى، والأدهى أنني لا أعلم لِمَ أنت وأنت لم تتعمقْ في جذور القصة لتصلَ إلى إجابة سؤال مُربكٍ مفاده " لمَ أنا "

في الحبِّ لا أحدَ يسأل الآخر لماذا تحبني، حقيقةُ الأمر كلاهما لا يعلم لماذا أحبَّ الآخر بالتحديد لكن تيقن أنَّه على استعدادٍ للتضيحة بأيِّ شيءٍ لأجلك!

* * *

المشهد السابع والعشرون

كنت بشتاقلك وأنا وإنت هنا"

بيني وبينك خطوتين

شوف بقينا إزاي أنا فين

يا حبيبي وإنت فين.. إنت فين٠٠٠"

أم كلثوم

لماذا هي؟!

قال:

لا أعرفُ؛ كانت تستطيعُ بابتسامةٍ واحدةٍ أن تجعل قلبي يضيء؛ كأنَّه لم ينطفئ من قبلُ، لم أكن تحتَ تأثير شيء سوى عينيها، أقسم أنني لم أشعرْ بدقاتِ قلبي قط إلا في حضورها.

أستطيعُ أن أصف شكلَ قلبي بدقةٍ كبيرة عندما أنغمسُ في الحديث معها، لم يكنْ حباً كان شعوراً أعمق؛ أعمقُ بكثيرٍ مما تظن وأظن،كانت تساهم مساهمةً فعَّالةً في شفاء روحي، قلبي لازال يقتاتُ على ذكراها.

وددت كثيراً لو أنها تسمع حديثي الآنَ، حالت السحبُ بينَ عيني وبينكِ يا قمري، صدري يكتوي بالشوق، ولا يعرفُ الصبابة إلا مَنْ يكابدها، لازلت أمارسُ الاشتياق إليكِ سراً في كلِّ ليلة، لازالت الموسيقى تعزفُ رغم انتهاء الكلمات، لازالت أغانينا تعصفُ بي كلما تحاشيتها، كأنَّها تثأرُ منِّي بأنعم طريقة مؤلمة.

لازالت نبضاتُ قلبي تلفظ اسمكِ، اسمك لازال يحمل نغماً شقياً حينما أخطه في أوراقي، كأنَّ اللغة وُجدت لتزينه، الحقُّ أنِّي لا أخطه إنما قد حفرته على مداخلِ قلبي، فلا يُسمح لغيرك بالمرور.

كنتِ تنبئيني أنِّي قد أفقدكِ، جعلتها فكرةً قابلةً للحدوث، إن الحديث عن فقدك مرٌّ فعلا، فكيف لكِ أن تتخيلي طعمَ فقدك، كنتِ الصواب بين جملة أخطائي!

إنني وحيدٌ من دونك،أعدُّ وريقاتِ الشجر التي يداعبها الهواء، أحادث النجومَ في غيابكِ، أخبرهم كم أنني أشتاقُ إليكِ.

الليل طويلٌ، والسماءُ رغم زينتها تبدو كئيبةً للغاية، كلُّ شيء فقد معناه، وأنتِ لستِ جواري، كم مرة علىَّ أن أطلب منكِ العودة إلى هنا !!

إلى قلبي حيثُ تنتمين، وإلىَّ أنا فأنا لا وطنَ لي سواكِ!

كم مرة سأسألك السماحَ عن أشياء اقترفتُها بحقكِ، حتى نفذ صبرُك وغادرتِ، حاولت مراراً أن أستبدلكِ بأخرى، لكن مكانك لا تسكنه العابراتُ، غيابكِ يفتكُ بي بلا هوادة يا قمري!

ألم يحن اللقاءُ بعد؟!

قلبي يسألني عنكِ، ولا أجد له مبرراً لغيابكِ، لا أجد له ومضةَ أملٍ حتى في عودتك، أعلمُ أنني خذلتكِ، لكن رحيلكِ كان أكثرَ مرارةً !

* * *

المشهد الثامن والعشرون

ياريت قلبي يكون قاسي عشان يقدر يفوت حبك
وأعيش زيك سعيد ناسي ولا أسألش على قلبك
لقيت عينيا عليك تبكي تقولي أصلي ما يهونش
وحتى روحي تخاصمني وقلبي يقول ما تظلمشي

كاظم الساهر

هذا الصباحُ كان مختلفاً، جاءتني فتاةٌ سلمتني ورقة مطوية، ولفظت بعض الكلمات التي أشارت إلى أنها كتبت لأحدهم هذه الرسالة، تمنَّتْ لو أنَّه يقرأها، هذه الصديقة لم تكن ترغبُ في الحديث، وربما خشيت أن تخونها أعينُها أمامي؛ البعضُ مهما بلغ من ضعفٍ فإنَّه يظلُّ مرتدياً قناع القوة، أيقنتُ حينها أن تلك الرسالة بوسعها أن تكشف لي عمَّا لا يمكن للصديقة البوح به علناً، فكانت الرسالة:

إليكَ .. لا تحيةَ طيبةً؛ - فكلُّ طيبٍ لا يليقُ بكَ - وبعد!

إنَّها إحدى الليالي التي يهزمني فيها شوقي إليكَ، لازالت كلماتُكَ المعبَّقة بالحُبِّ تُخدِّرُ قلبي، لازالت ذكراكَ تلاحقني، ولازال اسمُكَ يستهلُ قائمةَ هاتفي، لكنه ربما يكون آخر ما يردُ إليَّ.

اليوم، استرجعت ذكرى خذلانكَ، ليلتُها أقسمتُ أن أبيدَ كلَّ ما يخصك، جمعتُ بعض الصور المتبقية – أجل المتبقية- معظم الصور التي كنتُ أحتفظُ بها بللها سيلُ أدمعي حينما كنتُ أنظر بلومٍ لصورِكَ وأُدنيها من قلبي علَّكَ تشعر، لكن لا أنتَ شعرتَ بوخزاتِ قلبي، ولا أثَّر فيك عتبي.

جمعتُ أيضاً بعض الهدايا التي أصبحتْ تلاحقني في كلِّ ركنٍ بالمنزل، بدأتُ بتحطيم بعضها وتمزيق الآخر، كنتُ كمن فقدَ إيمانَه بأصنامِ الوثنيةِ فأخذَ يُخرِّبها، وتعتريه الحسرةُ على إيمانه الآثم، بالمناسبة كيف لقلبي أن يلحدَ بكَ بعدَ كلِّ هذا الإيمان!

وجمعت بعضَ الرسائل، حينما تفحصتُ كلمات بعضها، ورأيتُ وعودكَ بالحبِّ الأزلي والحياة الهادئة، تلفظتُ ببعض الكلماتِ السيئة التي لا أفخرُ بقولها، نعتُّكَ بأوصاف حقيرة للغاية.

لكن أتدري شيئًا ؟!

أظنكَ استحققتها بجدارةٍ يوم أن هشَّمتَ فؤادي دونَ شفقةٍ على ما آل إليه.

هممتُ أن أحرقَ كلَّ ما يُذكرني بكَ، لكن لا شيءَ احترق سوى قلبي، نثرتُ ما تبقى من رماده علَّ روحي ترقدُ في سلام، أردت أن أنتزعك من داخلي فوجدتُكَ تعلق بي أكثر.

.يا لك من أناني! أنتَ رحلتَ، وأنا هنا أحصدُ خيبةَ خذلانِكَ، فلا سلامَ.

* * *

المشهد التاسع والعشرون

ما تلوموش على قلب عاشق ما تلوموش"
لما يعشق أو يفارق ما تلوموش
لوموا على اللي قلبه خالي لوموا
واللي ما سهرش الليالي لوموا..... "

محرم فؤاد

حدث معي أمرٌ أزعجني كثيراً اليوم يا دكتور، استيقظتُ على صوتِ رسالةٍ من أحدهم؛ كانت الرسالة عبارة عن: " أُحبُّكِ،وسأظلُّ"

- وما الذي يزعجُ في الأمر، أعني ما الغريب ؟

في الحقيقة، لم أسخرْ من رسالته، وحتى لم أشعر بأيِّ استنكارٍ لجرأته، لم أفعلْ شيئاً سوى أن تمالكتُ أحرفي لأكتبَ إليه:

العزيزُ الذي آلمتني رسالتِه رغمَ قلة حروفها، أتمنى أن تتقبلَ كلماتي التي سيلفحُ صقيعُها ثنايا قلبكَ، وبعد ..

لن يصعبَ على بشري لفظة "أحبك"، حتى أبجديتِها في متناول الجميع، لكن هذه الكلمةَ سرق أحدُهم أحرفها من قاموسي، وما استطعتُ استردادها، على ما أعتقدُ أنكَ الآنَ تخبط كفكَ برأسِكَ، وتدقُ النظر في عبارتي هذه، وتظنُّ أن قلبي برفقة أحدِهم، لا بأسَ لستُ كذلك.

عزيزي -اسمحْ لي بلقب عزيزي؛ فهو أبقى وأعمقُ من حبيبي لو تعلم- اكتشفتُ أن الحبَّ هو أن تستيقظَ وتخبرَ أحدَهم أنكَ لستَ قادراً على الحديث، بل لستَ قادرًا على الحياة، أن الحزنَ تملكَكَ دونَ سببٍ وجيه، تتجردُ أمامَه من كلِّ معالم قوتِكَ وتعترفُ بضعفِكَ.

تتركُ لجامَ دموعِكَ لتنهمرَ، وتلقي بكلِّ ما يُثقلُكَ على كتفه، ليس استسلاماً إنما ثقةٌ بأنكَ مهما مالت بك الحياةُ ستجد في اللحظاتِ الأخيرة ذاك الكتفَ يدفعُكَ لتقاومَ لا يلومك على المَيل.

الحبُّ لا يعني المثالية، ولا حتى السعي نحوَها، الحبُّ يأتي حينما نغفل عن وجوده، لا مبرراتٍ ولا شروطَ، فقط يأتي.

الحُبُّ هو أن ترى نفسك معَّيباً، وأظلُّ أراكَ مناسبًا، أن أنظر للمرآة كلَّ صباحٍ، وأرى الهالات تُطوِّق عيني، وتلك البثور التي تركت أثرًا جليًا، أو بضع شعراتٍ دبَّ فيها الشيبُ، ترى كلَّ هذا وتظل تخبرني بأنَّها علاماتُ نضجي وليس تقدمي في السن، أن تظل مؤمناً بي في الوقت الذي أفقد فيه إيماني بنفسي.

الحُبُّ ليس أن تُخفي جانبك المظلم، أرني إياه سأضيئُه لكَ، الحُبُّ ليس أن أثقَ بكَ، بل أثق وتثبت أنكَ جديرٌ بثقتي، لا تخبرني أنك تُحبني ما دامت أفعالُكَ لا تستطيع أن تُحبني.

استيقظتُ اليوم، واكتشفتُ أن الحُبَّ تقريباً مثل أسطورة " أطلانتس" التي تشيرُ بعض الروايات إلى أن أنقاضها لا زالت في أحضان المحيط، اكتشفتُ أن الحبَّ ربما هو موجود بالفعل، لكن ربما ليس كثيرون من يثبتون وجودَه، تماماً كوجود أطلانتس، أنا لا أُومنُ إلا بذاك الحُبِّ الصعب، أما ذاك المتداولُ وكلماته الرنَّانة لا يعنيني .

لن أقبلَ أن أنصاعَ لأربعةِ أحرفٍ اليوم ثم أجد نفسي أبدَ الدهر أستيقظُ بحاجة لغطاء وسادةٍ جديد، بعدما بللها سيلُ أدمعي في الليل، أتفهمُ قصدي؟ لقد اكتفيتُ من كلِّ هذا، والسلام !

❊ ❊ ❊

- توقفتُ برهةً حينما انتهتْ صديقتنا من حديثها، كنتُ قد أيقنتُ حينها أننا نفتقد جميعنا للحبِّ على مختلف الأصعدة، نحن في الحقيقة نفتقد كلَّ شيء، حتى ولو طوقتها هالةُ الكمال، لازالت دواخلنا تُعاني.

❊ ❊ ❊

المشهد الثلاثون

" أنتَ كما لم يعرفكَ أحدٌ من قبل "

مشهد الختام

لم تحنْ النهايةُ بعد!

لتسطرَ أنتَ مشهدَكَ الخاص هنا...

لا تتوقعْ أن أكتبَ خاتمةً لائقةً، لعلكَ لاحظتَ من البداية أنَّها قصصُ أناسٍ عاديين، يموتون في الغالب قبلَ أن تصلَ حياتُهم إلى مرحلةِ الذروة، أو يظلوا في سلسلةٍ متتابعةٍ من الألم وإن كان افتراضياً، وأناس يرحلون وبعدَ رحيلهم تستمرُ الحياةُ، وآخرين يعيشون على أمل أن تأتيَ الانفراجةُ يومًا .

ختاما:

قلْ وداعاً؛ للذين جعلوك تشعرُ يوماً بأنك لستَ كافياً، للذين لم يضعوا في اعتبارهم هشاشة روحكَ، وأعاثوا فيها فساداً، للذين انتهكوا حُرمة قلبكَ، لأولئك الذين يجعلونك ترتفعُ إلى عنان السماء بكلمةٍ طيبة، ومن ثم يخسفون بكَ وبمشاعركَ الأرضَ خسفاً مبيناً، للذين يزرعون في روحكَ شوكاً، رغم حصادهم زهرات قلبكَ، لأولئك الذين تشبثوا يوماً، وتركوا الوصالَ في وهلة، ولو ظلوا لتشبثتَ أنتَ بهم دهراً.

قلْ وداعاً؛ لكلِّ الذين أحببتهم كثيراً، وكانوا أشحّاءَ حتى في قليلهم، للذين استغلوا مشاعركَ يداعبونها بكلمة، ويجعلونها هشيماً تذروه الرياحُ بكلمةٍ أخرى، للذين جعلوكَ تنظر لنفسك صباحَ كلِّ يومٍ على أنك "عدمٌ" لا يستحق!

لسنا مجبرين على تحمُّلِ كلَّ ذلك، قد اكتفينا.

قلْ وداعاً والسلام !

تمت بحمد الله